

الرسالة رقم: (٧٩) **مَجْمُوعَةُ** **المَلَايِكَةِ** **القَارِيَةِ**

السَّيِّئَاتِ التَّائِبَاتِ

فِي

شَرْحِ التَّائِبَاتِ

تَأليفُ العالِمِ
المَلَايِكَةِ القَارِيَةِ

طُبِعَ مُحَقَّقًا عَلَى نَصْرِ شَيْخِ خَطِّبَةٍ

يَحْيَى بْنُ وَهَّابٍ

محمد مصعب كلثوم

دارُ اللُّبَابِ

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي فتح باب التوبة أمام العباد، وأمرهم بالتزود من التقوى فهي خير زاد، وحذرهم من الدنيا التي أهلك من قبلهم في البلاد، فهي رأس كل خطيئة تهلك العباد، والصلاة والسلام على سيد الزهاد والعباد، ومن أرسله الله رحمة للعباد، وعلى آله وصحبه ومن اقتدى بهم واستنَّ بسنتهم إلى يوم المعاد.

وبعد:

فلما كانت الدنيا عدوة لله، وعدوة لأوليائه الله، وعدوة لأعداء الله؛ أما عداوتها لله؛ فلأنها قطعت الطريق على عباد الله، وأما عداوتها لأوليائه الله عز وجل؛ فلأنها تزينت لهم بزيتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها، وأما عداوتها لأعداء الله؛ فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها، فاقتنصتهم بشبكاتها حتى وثقوا بها وعولوا عليها؛ فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها؛ فاجتنوا منها حسرة تنقطع دونها الأكباد، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد؛ فهم على فراقها يتحسرون، ومن مكايدها يستغيثون ولا يُغاثون، بل يُقال لهم: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦].

ولخطورة الدنيا وخبثها، حذرنا منها نبينا المصطفى سيد الزاهدين وإمام الورعين ﷺ بقوله: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتفأسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما

أَهْلَكَتْهُمْ»، وها هو الأبُّ الشفوقُ الحنونُ شرفُ الدينِ إسماعيلُ بنُ أبي بكرٍ المُقري ينصحُ ويحذّرُ ولدهُ وفليدةُ كبدِهِ بهذه الأبياتِ الرائقة، المُسمّاة بـ (القَصيدة التائية في التذكير)، المشتملة على المواعظِ البيناتِ، فكانت هذه القصيدة بحقّ مُذكّرةً، ومُزهِدَةً.

لكن لغلبة العفلة، وقلة اليقظة عبر الأيام، وطول الأمل وتسويف العمل، وتأخير الإيقاظ عن حلول الأجل، وفساد الزمانِ وبعده عن عصرِ أهل الإيقان، فلم يعد يتأثر القارئ بالقرآن، ولا زوّار الموتى بالعبرة بموت الأقران؛ فخطر ببال العلامة القاري أن يشرح هذه القصيدة التائية، بعد أن ألحَّ عليه بعضُ الأحاب، وذلك لأنَّ القلوبَ قد قست بطول المدد، والعيونَ قد قحطت من قلة المدد، والجوارح قد تعطلت من عدم العدد، وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ [الحديد: ١٦]، بلى قد آن يارب.

فقام العلامة شيخُ الحنفية في زمانه العلامة القاري؛ بكشف اللثام عن هذه التائية، فشرح مفرداتها، وبيّن غريبها، ووضح إعرابها، ووجه غريبها، ويسر للقارئ فهمها، وأضاء على الصور البلاغية فيها، من البديع والبيان، ورصّع هذا الشرح الممتع بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار، والأخبار، والأشعار، ونبّه على ما وقع في بعض النسخ من خلافات، وبيّن المصحّفات منها، وأشار فيه إلى إشارات لطيفة، ونكت عويصة، وسماها: «الرسالة التائية في شرح التائية».

فقمنا بمقابلتها على ثلاث نسخ خطية. وهي نسخة أسعد أفندي ورمزها: «أ»، والنسخة الحميدية ورمزها: «ح»، ونسخة داماد إبراهيم ورمزها: «د».

ثم ضبطناها ورصّعناها بعلامات الترقيم المناسبة؛ لتسهّل على القارئ صعوبة

بعض الألفاظ، وقمنا بتخريج الأحاديث والأخبار والأشعار الواقعة خلال الشرح من مصادرهما ومطائنها، ولتمام الفائدة وضعنا «القصيدة التائية» مضبوطة الشكل كاملة في بداية هذه الرسالة، وألحقنا بذيلها القصيدة التي عارض فيها ولد ابن المقرئ والده، وقام بشرحها الإمام القاري، وذلك لأنه توهّم بعض العوام استحسانها، وما علموا أنه أخطأ طريق صوابه، وترك سبيل الواجب في آدابه؛ حيث لم يُحسن في مقام خطابه، ولم يأت بما يُجديه في بابه؛ فبيّن العلامة القاري - رحمه الله تعالى - على أنه لا مناسبة بينهما لا في تحقيق المبنى، ولا في تدقيق المعنى؛ من خلال المُقارنة والموازنة بين القصيدتين، بإسلوب علمي رصين.

هذا؛ ونسأل الله العليّ أن يشرح صدورنا بذكره، ويفسح قلوبنا بفكره، ويُقوّي جوارحنا بشكره، ويُنور أعيننا بنوره؛ لنزهد في الدنيا الدنيّة الفانية، ونرغب في العقبى العليّة الباقية، قبل أن يأتي يوم تتحسّر النفس ولا تنفعها الحسرة؛ حيث ما نظرت إلى الدنيا بعين العبرة، ولا خرجت من عينها قطرة من العبرة.

فاللهمّ تقبل منا هذا العمل، واغفر لنا ما وقع فيه من الخلل والزلل، واشفنا وعافنا من جميع الأمراض والعلل، والطف بالمسلمين بالبلاء الذي نزل، ورُدنا إلى دينك ردّاً جميلاً يبعث إلى الجد والعمل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المحقق

تَائِيَةُ ابْنِ الْمُقَرِّي

إِلَى كَمْ تَمَادٍ فِي غُرُورٍ وَعَقْلَةٍ
لَقَدْ ضَاعَ عُمُرُ سَاعَةٍ مِنْهُ تُشْتَرَى
أَتَنْفِقُ هَذَا فِي هَوَى هَذِهِ الَّتِي
وَتَرْضَى مِنَ الْعَيْشِ السَّعِيدِ تَعِيشُهُ
فِيَا دُرَّةَ بَيْنَ الْمَزَابِلِ أُلْقِيَتْ
أَفَانٍ بِبَاقٍ تَشْتَرِيهِ سَفَاهَةٌ
أَأَنْتَ عَدُوٌّ أَمْ صَدِيقٌ لِنَفْسِهِ
وَلَوْ فَعَلَ الْأَعْدَا بِنَفْسِكَ بَعْضَ مَا
لَقَدْ بَغَتْهَا حَرِّي عَلَىكَ رَخِيصَةً
فَوَيْكَ اسْتَفِقْ لَا تَقْضَحْنَهَا بِمَشْهَدٍ
فَبَيْنَ يَدَيْهَا مَوْقِفٌ وَفَضِيحَةٌ
كَلِفَتْ بِهَا دُنْيَا كَثِيرٌ غُرُورُهَا
إِذَا أَقْبَلْتَ وَلَّتْ وَإِنْ هِيَ أَحْسَنْتَ
وَلَوْ نِلْتَ مِنْهَا مَالَ قَارُونَ لَمْ تَنْلِ
وَهَبَكَ بَلَغْتَ الْمُلْكَ فِيهَا أَلَمْ تَكُنْ
فَدَعَهَا وَأَهْلِيهَا تَقْضُهُمْ وَخَذَلَهَا
وَلَا تَغْتَبِطُ فِيهَا بِفَرْحَةٍ سَاعَةٍ
وَكَمْ هَكَذَا نَوْمٌ إِلَى غَيْرِ يَقْطَعِ
بِمَلِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَةً ضَيْعَةٍ
أَبَى اللَّهُ أَنْ تَسَوَى جَنَاحَ بَعُوضَةٍ
مَعَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِعَيْشِ الْبَهِيمَةِ
وَجَوْهَرَةٍ يَبْعَثُ بِأَبْخَسِ قِيمَةٍ
وَسُخْطُ بَرِضَوَانٍ وَنَارُ بَجْنَةٍ
فَإِنَّكَ تَرْمِيهَا بِكُلِّ مُصِيبَةٍ
فَعَلْتَ لِمَسَّتْهُمْ لَهَا بَعْضَ رَحْمَةٍ
وَكَاثَتْ بِهَذَا مِنْكَ غَيْرَ حَقِيقَةٍ
مِنَ الْخُلُقِ إِنْ كُنْتَ ابْنُ أُمَّ كَرِيمَةٍ
يُعَدُّ عَلَيْهَا كُلُّ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ
تُعَامِلُ مَنْ فِي نُصْحِهَا بِالْخَدِيعَةِ
أَسَاءَتْ وَإِنْ صَافَتْ فَثِقَ بِالْكَدُورَةِ
سَوَى لُقْمَةٍ فِي فَيْكَ مِنْهَا وَخِرْقَةٍ
لِتَنْزَعَهُ مِنْ فَيْكَ أَيْدِي الْمَنِيَةِ
بِنَفْسِكَ عَنْهَا فَهُوَ كُلُّ غَنِيمَةٍ
تُعَوِّدُ بِأَحْزَانٍ عَلَيْكَ طَوِيلَةٍ

فَعِيشُكَ فِيهَا أَلْفَ عَامٍ وَيَنْقُضِي
عَلَيْكَ بِمَا يُجْدِي عَلَيْكَ مِنَ التَّقَى
مَجَالِسُ ذِكْرِ اللَّهِ تَنْهَاكَ أَنْ تُرَى
إِذَا شَرَعُوا فِيهَا تَحْتَحُثَّ قَائِمًا
وَلَوْ كَانَ لَغَوَاً أَوْ أَحَادِيثَ رِيَّةٍ
تُصَلِّي بِلاَ قَلْبٍ صَلَاةً بِمِثْلِهَا
تَظَلُّ وَقَدْ أَتَمَمْتَهَا غَيْرَ عَالِمٍ
فَوَيْلَكَ تَذْرِي مَنْ تُنَاجِيهِ مُعْرِضًا
تُخَاطِبُهُ إِيَّاكَ نَعْبُدُ مُقْبِلًا
وَلَوْ رَدَّ مَنْ نَاجَاكَ لِلْغَيْرِ طَرْفَهُ
أَمَا تَسْتَحِي مِنْ مَالِكِ الْمُلْكِ أَنْ يَرَى
صَلَاةً أُقِيمَتْ يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهَا
وَأَعْجَبُ مِنْهَا أَنْ تَدِلَّ بِفِعْلِهَا
وَأَنْ يَعْتَرِبَكَ الْعُجْبُ أَيْضًا بِكُونِهَا
ذُنُوبُكَ فِي الطَّاعَاتِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ
سَبِيلُكَ أَنْ تَسْتَغْفِرَ اللَّهَ بَعْدَهَا
فِيَا عَامِلًا لِلنَّارِ جِسْمُكَ لَيِّنٌ
وَدَرَجُهُ فِي لَسَعِ الزَّانِبِينَ تَجْتَرِي
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَقْوَى فَوَيْحَكَ مَا الَّذِي

كَعِيشِكَ فِيهَا بَعْضَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
فَإِنَّكَ فِي لَهْوٍ عَظِيمٍ وَغَفْلَةٍ
بِهَا ذَاكِرًا لِلَّهِ ضِعْفَ الْعَقِيدَةِ
قِيَامُكَ هَذَا قُلْ إِلَى أَيِّ لَعْنَةٍ
وَثَبْتَ وَثُوبَ اللَّيْثِ نَحْوَ الْفَرِيسَةِ
يَكُونُ الْفَتَى مُسْتَوْجِبًا لِلْعُقُوبَةِ
تَزِيدُ احْتِيَاطًا رَكْعَةً بَعْدَ رَكْعَةٍ
وَبَيْنَ يَدَيَّ مَنْ تَنْحَنِي غَيْرَ مُخْبِتٍ
عَلَى غَيْرِهِ فِيهَا لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ
تَمَيَّزَتْ مِنْ غِيْظٍ عَلَيْهِ وَغَيْرَةٍ
صُدُودَكَ عَنْهُ يَا قَلِيلَ الْمُرُوءَةِ
بِفِعْلِكَ هَذَا طَاعَةً كَالْخَطِيئَةِ
كَمَنْ قَلَدَ الْمَدْلُولَ بَعْضَ صَنِيعَةٍ
عَلَى مَا حَوَّثَهُ مِنْ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ
إِذَا عُدَدْتَ تَكْفِيكَ عَنْ كُلِّ زَلَّةٍ
وَأَنْ تَتَلَفَى الذَّنْبَ مِنْهَا بِتَوْبَةٍ
فَجَرَّبَهُ تَمَرِينًا بِحَرِّ الظَّهِيرَةِ
عَلَى لَسَعِ حَيَاتٍ هُنَاكَ عَظِيمَةٍ
دَعَاكَ إِلَى إِسْخَاطِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ

تُبَارِزُهُ بِالْمُنْكَرَاتِ عَشِيَّةً
فَأَنْتَ عَلَيْهِ مِنْكَ أَجْرَى عَلَى الْوَرَى
تَقُولُ مَعَ الْعِضْيَانِ رَبِّي غَافِرٌ
وَرَبُّكَ رَزَاقٌ كَمَا هُوَ غَافِرٌ
لِأَنَّكَ تَرْجُو الْعَفْوَ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ
عَلَى أَنَّهُ بِالرِّزْقِ كَفَّلَ نَفْسَهُ
فَلَمْ تَرْضَ إِلَّا السَّعْيَ فِيمَا كُفِّتَهُ
تُسِيءُ بِهِ ظَنًّا وَتُحْسِنُ تَارَةً
إِلَهِي لَا وَاخْذُتْنَا بِذُنُوبِنَا
وَخُذْ بِنَوَاصِينَا إِلَيْكَ وَهَبْ لَنَا
إِلَهِي اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ وَخُذْ بِنَا
وَكُنْ شُغْلَنَا عَنْ كُلِّ شُغْلٍ وَهَمُّنَا
وَصَلِّ صَلَاةً لَا تَنَاهَى عَلَى الَّذِي
وَالٍ وَصَحْبٍ أَجْمَعِينَ وَتَابِعِ

وَتُصْبِحُ فِي أَثْوَابِ نُسْكَ وَعَقَّةٍ
لِمَا فِيكَ مِنْ جَهْلٍ وَخُبْثِ طَوِيَّةٍ
صَدَقْتَ وَلَكِنْ غَافِرٌ بِالْمَشِئَةِ
فَلِمَ لَا تُصَدِّقُ فِيهِمَا بِالسَّوِيَّةِ
وَلَسْتَ تُرْجِي الرِّزْقَ إِلَّا بِحِيلَةٍ
لِكُلِّ وَلَمْ يَكْفُلْ لِكُلِّ بَجَنَةٍ
وَإِهْمَالِ مَا كُلَّفْتَهُ مِنْ وَظِيفَةٍ
عَلَى نَحْوِ مَا يَقْضِي الْهَوَى بِالْقَضِيَّةِ
وَلَا تُخْزِنَا وَانْظُرْ إِلَيْنَا بِرَحْمَةٍ
يَقِينًا يَقِينًا كُلَّ شَكٍّ وَرِيَّةٍ
إِلَى الْحَقِّ نَهْجًا فِي سَوَاءِ الطَّرِيقَةِ
وَبُعَيْتَنَا عَنْ كُلِّ هَمٍّ وَبُغْيَةٍ
جَعَلْتَ بِهِ مَسْكَاً خَتَامَ النُّبُوَّةِ
وَتَابِعِهِمْ مِنْ كُلِّ إِنْسٍ وَجِنَّةٍ

مُعَارَضَةُ التَّائِيَةِ

لَوْلِدِ الْعَلَّامَةِ ابْنِ الْمُقَرِّي

لِي فِي اللَّهِ حُسْنُ ظَنٍّ جَمِيلٌ	إِنْ تَجَافَى عَنِ الْخَلِيلِ الْخَلِيلُ
لِي عُمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ وَرِزْقٌ	يَنْقُضِي وَالْكَثِيرُ مِنْهُ قَلِيلُ
مَا قَضَاهُ إِلَّا لَهُ لَا بُدَّ مِنْهُ	فَعَلَامَ مَا هَذَا الْعَرِيضُ الطَّوِيلُ
رُبَّ أَمْرٍ يَضِيقُ ذُرْعَكَ مِنْهُ	لَكَ فِيهِ إِلَى النَّجَاةِ سَبِيلُ
وَمَعَ الْعُسْرِ إِنْ تَتَابَعَ يُسْرٌ	لِصُرُوفِ الزَّمَانِ حَالٌ يَحُولُ
لَيْتَ شِعْرِي عَوَاقِبُ الْأَمْرِ مَاذَا	أَوْ إِلَامَ بِنَا الْمَالِ يَوْوُلُ
نَعْرِفُ الْحَقَّ ثُمَّ نُعْرِضُ عَنْهُ	وَنَرَاهُ وَنَحْنُ عَنْهُ نَمِيلُ
قَدْ عَلِمْنَا وَمَا انْتَفَعْنَا بِعِلْمٍ	إِنَّهُ قَدْ دَنَا وَحَانَ الرَّحِيلُ
لَوْ قِنَعْنَا مِنَ الْمُحَالِ اسْتَرْحْنَا	مِنْ عَنَاءٍ لَكِنَّ أَيْنَ الْعُقُولُ
نَحْنُ مُسْتَعْمِلُونَ فِيمَا خُلِقْنَا	مَا لَنَا فِي نُفُوسِنَا مَا نَقُولُ

بسم الله الرحمن الرحيم رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا يَا كَرِيمُ

الحمد لله العليّ العظيم، على كَرَمِهِ العَمِيمِ، ولُطْفِهِ الجَسِيمِ؛ بإخراج المؤمنين من الظلمات إلى النور، وبإيقاظ المنقطين من نوم الغفلة إلى حياة الذكر والحضور، والصلاة والسلام على مَنْ خَطَبْنَا ووَعَضْنَا وأدَبْنَا بما يُؤدِّي بنا إلى الحور والقصور، ويُرقِّينا إلى مقام الحبور ومنزل السُّرور، وعلى آله وأصحابه الآخذين عنه العلمَ بالخطِّ الموفور.

أما بعدُ:

فيقول المُفتقر إلى مغفرة ربِّه الباري، عليُّ بنُ سلطانٍ محمدٍ القاري، عاملُهُما الله بلطفه الخفي وكرمه الوفي: إِنَّ بَعْضَ إخواني في الدين الذي أُظُنُّ به أَنَّهُ في طلبِ اليقين، سألني أن أشرح القصيدة التائية المنسوبة إلى الإمام العلامة، والهُمام الفهامة، ذخير الزمن وفخر اليمَن، فريد عصره، ووحيد دهره، شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المُقري^(١)، جعلَ الله بركاتِ علومه علينا تجري،

(١) ابن المُقري؛ هو إسماعيل بن أبي بكر بن عبد الله بن إبراهيم بن علي الشرف اليماني الشافعي الزبيدي، ولد سنة (٧٥٤هـ)، إمام في الفقه والعربية والمنطق والأصول، وذو يدٍ طولى في الأدب؛ نظماً ونثراً، ومتفرد بالذكاء وقُوَّة الفهم وجودة الفكر، وله في هذا الشأن عجائب وغرائب، لا يقدر عليها غيره، ولم يبلغ رتبته في الذكاء واستخراج الدقائق أحدٌ من أبناء عصره، بل ولا من غيرهم، (ت ٨٣٧هـ)، من مصنفاته: «الروض» مُختصر «الروضة»، و«الإرشاد»، و«الشرف الوافي»، و«البديعية»، وغيرها. انظر: «البدر الطالع» للشوكاني (ص ١٤٢).

ومنافع مَدَدِهِ إلينا تَسْرِي، فامتنعتُ لقلّة البِضَاعَةِ في هذه المادّة، ولكثرة الخوفِ من الانحرافِ عن الجادّة؛ فألحَّ عليّ مرّةً بعد أُخرى؛ فرأيتُ أنّ إجابته أولى وأحرى؛ لأنّ الزمانَ يَقْتَضِي ذلكَ وإن لم يكنِ الْمُتَصَدِّي أهلاً لِمَا هُنَالِكَ؛ فإنّ البُعدَ عن قُرْبِ نورِ النُّبُوَّةِ وتعسُّرِ الاستِضَاءَةِ بِمَشَاعِلِ الحَضَرَةِ بعدَ بُعْدِ أَلْفِ سَنَةٍ في غَايَةِ مِنَ المَشَقَّةِ؛ فإنّ القُلُوبَ قَسَتْ بِطَوْلِ المُدَدِ، والعيونَ فَحَطَّتْ مِنْ قِلَّةِ المَدَدِ، والجوارِحَ تَعَطَّلَتْ مِنْ عَدَمِ العُدَدِ، وقد قالَ تعالى في زمنِ نزولِ الوحي على الرسولِ الأَمجدِ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرَّفَهُ وَعَظَّمَهُ لَدِيهِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ [الحديد: ١٦]، وجاءَ في الآثارِ: أن القرآنَ واعِظٌ ناطقٌ، والموتَ واعِظٌ صامتٌ^(١).

وقد قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧]، وفي الحديثِ: «كفى بالموتِ واعِظاً»^(٢).

لكن لفسادِ الزمانِ وبُعدِهِ عن عصرِ أهلِ الإيقانِ، لم يتأثّرِ القُرَّاءُ بالقرآنِ، ولا زُوَّارِ الموتى بالعبرةِ عن الأقرانِ، وهذا لغلبةِ الغفلةِ وقِلّةِ اليقظةِ، وطولِ الأملِ وتسويفِ العملِ، وتأخيرِ الإيقاظِ عن حلولِ الأجلِ.

فخطرَ بالبالِ الفاترِ مع الحالِ القاصرِ أن أشرحَ هذه الأبياتِ، المشتملةُ على المواعِظِ البَيِّناتِ، التي جاءتنا في قوالبِ العِبَارَاتِ اللطيفةِ، وصنَّفها في

(١) أورده أبو محمد عبد الحق الإشبيلي في «العاقبة في ذكر الموت والآخرة» (٣٩)، وابن الجوزي في «بستان الواعظين» (ص ١٦٠).

(٢) رواه الشهاب القضاعي في «المسند» (١٤١٠)، وابن الأعرابي في «معجمه» (٩٩٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٧٢) مرفوعاً، من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه، وفيه الربيع بن بدر، وهو متروك. وروى موقوفاً عند أحمد في «الزهد» (١٧٦)، وابن أبي الدنيا في «اليقين» (٣١) وهو أصح.

مراتبِ الإشاراتِ الشريفة؛ لعلَّ الله أن يشرحَ صدورنا بذكره، ويفسحَ قلوبنا بفكره، ويقوّي جوارحنا بشكره، ويُنورَ أعيننا بنوره؛ لنزهدَ في الدنيا الدنيّة الفانيّة، ونرغبَ في العُقبى العليّة الباقيّة.

وقد وردَ في الأحاديثِ النبويّة على صاحبها أُلوفُ التسليم والتحيّة في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]: «إذا دخلَ النورُ في القلبِ انشرحَ وانفسحَ»، فقيلَ له: هل له علامة؟ قال: «نعم؛ التجافي عن دارِ الغرورِ، والإقبالُ على دارِ الخلودِ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزوله»^(١).

وفَقَّنا اللهُ تعالى وإيّاكم على أن نجتمعَ بينَ العلمِ والعملِ والتعليمِ والإخلاصِ لِمَا هُنَالِكَ؛ فَإِنَّ الخلقَ كُلَّهُم هَلَكى إِلَّا الْعَالِمُونَ، وَالْعَالِمُونَ كُلُّهُمْ هَلَكى إِلَّا الْعَامِلُونَ، وَالْعَامِلُونَ كُلُّهُمْ هَلَكى إِلَّا الْمُخْلِصُونَ، وَالْمُخْلِصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ.

وفي الحديثِ العيسوي: أَنَّ مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ يُدْعَى فِي الْمَلَكُوتِ عَظِيماً، وقد قالَ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَثَةُ اللَّهِ بِمَا لَا يَعْلَمُ»^(٢)، قالَ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقد سَمَّيْتُ هَذِهِ الْعُجَالَةَ بـ «الرَّسَالَةِ التَّائِبِيَّةِ فِي شَرْحِ التَّائِبِيَّةِ».

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (١٣١)، والحاكم في «المستدرک» (٧٨٦٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٥٢)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وإسناده ضعيف. انظر: «العلل» للدارقطني (١٨٩ / ٥).

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٥ / ١٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وضعّفه.

قال الشيخ رحمه الله:

إِلَى كَمْ تَمَادٍ فِي غُرُورٍ وَعَقْلَةٍ وَكَمْ هَكَذَا نَوْمٌ إِلَى غَيْرِ يَقْظَةٍ
الْتِمَادِي: التَّماهُلُ والتَّكاسُلُ. والغُرُورُ بالضم: مصدرُ غَرَّهْ بالفتح: الدُّنيا،
وما غَرَّكَ، أو يُخَصُّ بالشیطانِ. وعَقَلَ عَنْهُ غُفُولًا: تركَهُ، وسَهَا عَنْهُ، والاسمُ الغَفْلَةُ،
واليقْظَةُ - محرَّكةٌ -: نقيضُ النومِ، كذا في «القاموس»^(١). فالسكونُ من بابِ الصَّرورةِ،
أو المرادُ به المصدرُ للمرةِ، ثم (كم) هنا استفهاميةٌ، و(تماد) تمييزُهُ، وهو مجرورٌ،
وجوزُهُ الفراءُ وغيرُهُ، وأصلُهُ: (تَمَادِي) استثقلت الكسرة؛ فحذفت ثمَّ الياءُ لالتقاءِ
الساكنين؛ فبقيَ مجروراً تقديرًا، و(في غُرُورٍ) متعلِّقٌ به، و(إلى) خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ،
هو أنتَ، أو (في غُرُورٍ) هو الخبرُ، و(إلى) متعلِّقٌ بمدخوليهِ على التنازعِ، و(كم)
الثانية عطفٌ على الأولى، وحُذِفَ مميِّزُهُ للعلمِ بِهِ.
و(نومٌ) مبتدأٌ، وسَوَّغَهُ التَّنوينُ للتعظيمِ، أو صفةٌ مُقدَّرةٌ، هيَ منك،
والخبرُ (إِلَى غَيْرِ يَقْظَةٍ) متعلِّقٌ بمُنته، أو (نومٌ) مع الجارِّ مبتدأٌ، خبرُهُ (إلى كم)،
و(هَكَذَا) حالٌ؛ أي: مُشابهًا لِمَا سَبَقَ.
ويحتملُ أنَّ أصلَ البيتِ: كانَ (تمادي) بصيغة المضارع على حذفِ
إحدى التائينِ؛ فحينئذٍ تتعلَّقُ به الظروفُ في المِصرَعِ الأولِ، ثم وقعَ التغيُّرُ
من تصرُّفاتِ النَّساخِ؛ فتأمل.
ثم في المِصرَعِ الثاني من صَنِيعِ البديعِ: الطَّباقُ بين النومِ واليقظةِ، وفي الأولِ
أو في الكلِّ صَنَعَةُ التَّجريدِ.

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص ٩٠٤)، (مادة: يقظ).

وحاصل المعنى: أنَّ الشيخَ رحمه الله جَرَدَ من نفسه مُخاطَباً، يصيرُ له مُعَاتِباً في سُلُوكِهِ ذاهباً وآيياً؛ بناءً على قضية: عِظْ نَفْسَكَ؛ فإنَّ اتعظتُ، فعظِ الناسَ، أو أَرَادَ به نصيحةَ ولدهِ وفِلَذَةٍ كَبِدِهِ؛ لاحتراقِهِ على كبدِهِ، ويحتملُ أن تكونَ العبارةُ من قَبيلِ: اسمعي يا جارة، أو خطابُ العامِّ للخواصِّ والعوامِّ؛ لأنَّ أكثرَهُم كالأنعامِ غافلينَ عَمَّا يَمْضِي عليهم من الليالي والأيام، ويقولُ لكلِّ منهم: من أولِ ما بلغتَ وابتداءً ما كُفِّتَ بما بلغتَ إلى كم وقتٍ وزمانٍ وإلى متى من الأيامِ والأوانِ مُعْرِضٌ عَمَّا أُمِرْتَ فِيهِ بالطاعةِ، ونُهِيتَ عن الطُّغيانِ، وواقعٌ في حضيضِ غُرُورٍ من مالٍ أو جاهٍ، أو علمٍ أو عملٍ، وتابعٌ لَغُرُورٍ من شيطانٍ؛ إنْسٍ أو جِنٍّ، أو من دُنْيا وأملٍ، وراسخٌ في غَفْلَةٍ مما صدرَ عنكَ من زلَلٍ أو فيمَّا يَأْتِيكَ من أَجَلٍ، وإلى كم هكذا على التماذي لك؛ نومٌ غفلةٌ مُنتَهٍ إلى غيرِ يَقْظَةٍ.

وفيه إشعارٌ: إلى أن أولَ بابِ السُّلُوكِ هو اليقظةُ من نومِ الغفلةِ؛ فَإِنَّهُ بمنزلةِ الحياةِ بعدَ الرحلةِ؛ فتحصلُ بها الرَّجعةُ والتوبةُ، والإنابةُ والأوبةُ، ولذا جعلها صاحبُ منازلِ السائرِينَ أولَ مقاماتِ السَّالِكِينَ المُشْتَمِلَةِ على ألفِ مرحلةٍ للنازِلِينَ، بخلافِ المَجْذُوبِينَ الطَّائِرِينَ؛ فَإِنَّ جَذْبَةً من جَذَبَاتِ الحَقِّ تُوازِي عملَ الثَّقَلَيْنِ؛ ففي خَطَرَةٍ قَلْبٍ ولمحةٍ عَيْنٍ يتجاوزُ المَجْذُوبُ عن حُجُبِ الكَوْنَيْنِ المُشِيرِ إِلَيْهَا: ﴿فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢]، ﴿وَلِئَصْنَعِ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، مُشْعِرٌ بعَيْنِ عِنَايَتِهِ عَلَيْكَ.

وفيه إيماءٌ إلى ما وردَ عن بابِ مَدِينَةِ العِلْمِ عليَّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: الناسُ نِيَامٌ، فإذا مَاتُوا انتَبَهُوا^(١)، ولكنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، تنبيهاً على ما قَدَّرَهُ وقضاهُ، ومنعَهُ وأعطاهُ، وفعلَ ما شاءَهُ وأمضاهُ، قَسَمَ القِسَامَ والناسُ

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٥٢) من قول سفيان الثوري، وعزاه السخاوي في «المقاصد الحسنة» لعلي بن أبي طالب (ص ٦٩١).

نِيَامٌ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]،
و﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، وفي الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا»^(١).

ومع هذا لولا أهل الغفلة والحمقى لخربت الدنيا، وقد قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا
النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، ويقول
سبحانه يوم القيامة: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، متعنا بكرمه العَمِيم لعبده
الخائف من العذاب الأليم أن يقول: ما غرني إلا كرمك القديم؛ فاغفر لي إنك أنت
الغفور الرحيم، وتفصيل أصناف الغرور في «إحياء العلوم» مسطور، ومجمله في
«تلبس إبليس» مذكور^(٢).

والغفلة أنواع، وعدّها بعض المشايخ كفراً، بل إنهم جعلوا الذكر شكراً،
وكأنه أخذ من قوله تعالى في حق الكافرين: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]،
والعارف ابن الفارض رحمه الله تعالى أشار إليه بقوله:

ولو خطرت لي في سواك إرادةٌ على خاطري سهواً حكمتُ بردّي
وبيّنت بعض التوجيهات الصفيّة التي على مُصطلحات السادة الصوفية
تجري، وبركاتها على صفحات صدور أرباب القلوب تسري، في «شرح
حزب الفتح» لمولانا وشيخ مشايخنا أبي الحسن البكري رَوْحَ اللَّهِ رُوحَهُ، ونور
ضريحه، ورزقنا فتوحه.

لَقَدْ ضَاعَ عُمْرُ سَاعَةٍ مِنْهُ تُشْتَرَى بِمِلءِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَةً ضَيْعَةٍ

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٠٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٤٥٩) من حديث ابن عمر
رضي الله عنهما موقوفاً.

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣٧٨ - ٤١٤)، و«تلبس إبليس» لابن الجوزي (ص ٤٧٢).

اللام جواب قسم مُقدَّر، وفُصرت السماء ضرورةً. (أَيَّةٌ ضَيْعَةٌ) منصوبٌ على المصدرية. وملء الشيء: ما يملأ به، وتنوين (عُمُر) للتعظيم، وتنوين (سَاعَةٌ) للتقليل، ثم (عُمُر) فاعل (ضَاع)، والجملة بعده صفة له، والرابط ضمير (منه)، والباء للبدلية متعلقة بـ (تُشْتَرَى) على صيغة المجهول داخله على المتروك، سواء كان الاشتراء بمعنى الابتياح، أو الاختيار.

ولمّا نبّه الشيخ للسالك على اليقظة من نوم الغفلة، والرّجوع عن العُجب والغرور بالتوبة والأوبة؛ حرّضه وحرّضه على اغتنام بقية عمره؛ لئلا يمضي على غفلته وغروره؛ بأن قال: والله لقد ضاع عمرٌ شريفٌ، صفته أنه لو فرض أن كل ساعة - والمراد منها: كل نفسٍ ولمحة - تُباع بملء السماء والأرض من الذهب، أو أشياء نفيسة من المطلب، ولعلّ حذف التمييز، لأن يذهب التمييز إلى كل مذهب، لا اشتراها العاقل الكامل، الذي هو عبارة عن العالم العامل.

وأشار به إلى قوله ﷺ: «ليس يتحسّر أهل الجنة يوم القيامة إلا على ساعة مرّت بهم ولم يذكروا الله فيها»^(١)، وإلى قول عمر رضي الله عنه: إنني لأكره أن أرى أحدكم سهلاً؛ لا في عملٍ دنياء، ولا في عملٍ آخرته^(٢)؛ أي: في عملٍ دنياء الضرورية المعينة على الأمور الأخروية والأمور الدينية أيضاً، إن لم تكن على تصحيح النية، فتعدّ من الأمور الضائعة الدنيوية؛ ولذا قال الغزالي: ضيعت قطعة من العمر العزيز في تصنيف «السيط»، و«الوسيط»، و«الوجيز»^(٣)، وأوماً

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠ / ٩٣)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٠٩) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) أورده الزمخشري في «الفائق» (٢ / ١٤٩)، وابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢ / ٣٤٠)، وسهلاً: أي: فارغاً، ليس معه من عمل الآخرة شيء. يُقال: جاء يُمشي سهلاً؛ إذا جاء وذهب فارغاً في غير شيء.

(٣) انظر: «الجواهر المضية» (١ / ٥٢٤).

إلى قول أبي ذر رضي الله عنه: الدنيا ثلاث ساعات؛ ساعة مضت، وساعة أنت فيها، وساعة لا تدري أتدركها أم لا.

فلست تملك بالحقيقة إلا ساعة واحدة؛ إذ الموت من ساعة إلى ساعة؛ ولهذا اختار السادة النقشبندية محافظة الأنفاس في الأذكار الإلهية، ويقولون: كل نفس خطوة إلى أجلك، فلا تضعيها في طول أملك، مع أنه يحتمل أن تكون تلك الساعة النفس الأخير فكن حاضراً؛ لأن الموت على الغفلة أمر خطير، وقد ثبت عنه ﷺ: أنه قال لأصحابه: «أما تعجبون من أسامة المشتري الوليدة إلى شهر، إن أسامة لطويل الأمل، والله ما وضعت قدماً فظننت أني أرفعها ولا لقمتم لقمة، فظننت أني أسيغها، حتى يدركني الموت، والذي نفسي بيده؛ إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين»^(١).

والحاصل: أن ما لا يدرك كله لا يترك كله، ولذا جاء في حديث: نافق حنظلة: «ساعة فساعة»^(٢)، وفي لسان العامة: ساعة لربي، وساعة لقلبي، وحسبي ربي من كل مرئي. قال الغزالي: وفي الخبر: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(٣)؛ هذا يومك الذي قيمته درهمان مع احتمال التعب العظيم صارت له هذه القيمة بتأخير غداء إلى عشاء، ولو قمت ليلة لله تعالى، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، بل لو جعلت لله ساعة نصلي فيها ركعتين خفيفتين، بل نفساً، قلت فيه: لا إله إلا الله، فقد قال عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

(١) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٠٥)، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (٦)، وأبو نعيم في

«حلية الأولياء» (٦ / ٩١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وسنده ضعيف.

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٠)، والترمذي (٢٥١٤) من حديث حنظلة الأسدي رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهذه ساعة من ساعاتك ونفس من أنفاسك التي لا قيمة لها عند أهل الدنيا ولا عندك؛ فلم تُضَيِّعها في لا شيء، وكم تمرُّ عليك بلا فائدة، فصار لها كل هذا القدر، لماذا لما أنه وقع مرضياً لله تعالى، فعظم قدرها وأكثر قيمتها بفضلِهِ العَمِيمِ وكرمه القديم؛ إنه هو البرُّ الرحيمُ.

أَتُنْفِقُ هَذَا فِي هَوَى هَذِهِ الَّتِي أَبَى اللَّهُ أَنْ تَسَوَى جَنَاحَ بَعُوضَةٍ

ثم الهمزة للإنكار، و(هذا) إشارة إلى العمر، و(هذه) إلى الدنيا، وإن لم يجز ذكرها؛ لدلالة سَوَى الكلام عليها، وانتقال ذهن المُستقيم إليها، والإشارة في الأول للتعظيم، وفي الثاني للتحقير، و(أبى) بمعنى امتنع، وحذف (من) مع (أن) مُطَرِّدٌ، أو (أن) مع مدخولها مفعولُهُ، ففي «القاموس» أبى الشيء يأبأه: كرهه^(١).

و(تَسَوَى) بفتح حرفِ المُضارعة، بمعنى تُساوي وتعدل، وهي لغة قليلة على ما في «القاموس»^(٢)، ومفعولهُ الجناح - بفتح الجيم - الرِّيشُ، والبَعُوضُ: فعولٌ من البَعَضِ؛ غَلَبَ على هذا النوع، وهو البَقُّ، والتاء فيه للوحدَة.

يقول: أَتَضَرِّفُ هذا العُمَرَ الشَّرِيفَ الذي هو أشرفُ من ملء السَّماءِ والأرضِ من الجوهرِ اللطيفِ، في محبة هذه الدنيا الحَقِيرَةِ الفَانِيَةِ المَانِعَةِ عن الباقيةِ الذخيرةِ المُشغَلَةِ عن الوصولِ إلى المراتبِ العَلِيَّةِ الخطيرةِ، والنَّعْمِ الأُخْرَوِيَّةِ الأَبَدِيَّةِ الأَخِيرَةِ، التي لم يَرْضَ اللهُ تعالى أن تَسَوَى عندَ عبادِهِ الصَّالِحِينَ جناحَ بعوضةٍ واحدةٍ، التي هي أَحقرُ أَعْضَاءِ أَدْوَنِ الحَيَوَانَاتِ الطَّائِرَةِ الحَائِرَةِ.

والبيتُ مُقْتَبَسٌ من الحديثِ النبويِّ والخبرِ المُصْطَفَوِيِّ ﷺ وشَرَفَ وَكَرَّمَ وَعَظَّمَ: «لو كانت الدنيا تعدلُ عندَ الله جناحَ بعوضةٍ لَمَا سَقَى كَافراً منها شربةَ ماءٍ».

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص ١٦٢٣)، (مادة: أبي).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص ١٦٧٣)، (مادة: سوي).

رواه الترمذي^(١).

ولعلَّ الحديثَ مُستفادٌ من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً
وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾
وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

وورد: «إِنَّ اللَّهَ تعالى لِيَحْمِيَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ عَنِ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ
مَرِيضَكُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ؛ تَخَافُونَ عَلَيْهِ» رواه أحمدٌ في «المسند»^(٢).

ثم اعلَمْ: أَنَّ الدُّنْيَا وَالْعُقْبَى خُلِقَتَا نَقِيضَتَيْنِ، وَأَنَّ مَثَلَهُمَا كَمَثَلِ الضَّرْتَيْنِ
وَالْكَفَّتَيْنِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ ﷺ بقوله: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ
آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ؛ فَاتَرَوْا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى» رواه أحمدٌ والحاكم^(٣).
وقال بعضُ الصُّوفِيَّةِ: تَرَكْتُ الدُّنْيَا لِقَلَّةِ غَنَائِهَا، وَكَثْرَةِ عَنَائِهَا، وَسُرْعَةِ فَنَائِهَا،
وَخِسَّةِ شُرَكَائِهَا^(٤).

قال بعضُ العارفينَ في فاتحةِ هذه اللَّائِحَةِ: رَائِحَةُ الرَّغْبَةِ فَائِحَةٌ.
وما أحسنَ ما قالَ الحسنُ: إِنَّ بَقِيَّتَ لَكَ الدُّنْيَا لَمْ تَبَقْ لَهَا؛ يَعْنِي: فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي
الْمِيلِ إِلَيْهَا وَإِنْفَاقِ الْعُمَرِ الْعَزِيزِ عَلَيْهَا.

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ
صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤٢٧ / ٥) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٤١٢ / ٤)، والحاكم في «المستدرک» (٧٨٥٣) من حديث أبي موسى
الأشعري رضي الله عنه.

(٤) انظر: «فيض القدير» (١٤٣ / ٦).

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى الزَّوَالِ
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلَ ظِلٍّ أَظْلَكَ ثُمَّ آذَنَ بَارْتَحَالَ^(١)
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، ولقد صدق
القائل:

أَضْغَاثُ نَوْمٍ أَوْ كَظَلٍّ زَائِلٍ إِنَّ اللَّيْبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ^(٢)
وقد صحَّ في الخبر: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعَدَّ
نَفْسَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ»^(٣)؛ أي: لِتَتَخَلَّصَ مِنْ آفَاتِ الدُّنْيَا، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا
مِنَ الْأُمُورِ؛ كَالْحِرْصِ وَالطَّمَعِ، وَطُولِ الْأَمَلِ، وَنَوْمِ الْغَفْلَةِ، وَالتَّمَنِّيِ وَالْغُرُورِ،
وَتَوَجَّهَ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى كِمَالِ الْحُضُورِ؛ إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الشَّكُورُ، وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ مِنْ أَهْلِ الْحَالِ:

إِذَا أَبْقَتِ الدُّنْيَا عَلَى الْمَرْءِ دِينَهُ فَمَا فَاتَهُ مِنْهَا فَلَيْسَ بِضَائِرٍ
فَلَنْ تَعْدَلَ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلَا وَزْنَ رِيْشٍ مِنْ جَنَاحٍ لَطَائِرٍ^(٤)
وَتَرْضَى مِنَ الْعَيْشِ السَّعِيدِ تَعِيشُهُ مَعَ الْمَالِ الْأَعْلَى بِعَيْشِ الْبَهِيمَةِ
(تَرْضَى) عَطْفٌ عَلَى (تَنْفَقُ)، وَ(الْعَيْشِ) مَصْدَرُ عَاشَ، وَ(مِنْ) لِلْبَدَلِيَةِ،
وَ(السَّعِيدِ) صِفَتُهُ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَحْتَوِياً عَلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا فِي طَاعَةِ الْمَوْلَى،
وَسِيَادَةِ الْعُقَبَى بِالذَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَ(تَعِيشُهُ) حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ، وَضَمِيرُهُ الْبَارِزُ

(١) البيتان نسباً لعلّي بن أبي طالب رضي الله عنه مع اختلاف في البيت الثاني.

(٢) البيتان نسباً للحسن البصري، كما في «التذكرة الحمدونية» (١ / ٣٢١).

(٣) رواه البخاري (٦٠٥٣)، والترمذي (٢٣٣٣)، وابن ماجه (٤١١٤)، وأحمد في «المسند» (٢ /

٢٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٤) البيتان ذكرهما الجاحظ في «البيان والتبيين» بلا نسبة (ص ٤٧٦).

إلى (العيش) توسعاً، والتقدير: تعيش فيه؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢]، و(مع الملائكة الأعلى) حال؛ أي: مُرافقاً معهم ومُصاحباً بهم، و(بعيش البهيمية) مُتعلق بـ (ترضى).

والبيت مُقتبس من قوله تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وتقديم (من) على الباء في البيت للضرورة.

والمعنى: أترضى أيها العالمُ العاملُ أو الفاضلُ الكاملُ بعيش البهائم الشاملِ لوصف الغافلِ عمّا خُلِقَ له العاقلُ، بدلاً من العيش السعيدِ على وجه التوفيقِ والتأييدِ بسلوكِ طريقِ التسديدِ من دوامِ الذكرِ وتَمَامِ الفكرِ، مُصاحباً مع الملائكة الأعلى من الملائكة المُقرَّبينَ ومرافقاً مع الرفيقِ الأعلى من أرواح الأنبياء والمرسلين والشهداء والصالحين.

وفي البيت تلويحٌ إلى قوله تعالى في حقِّ العوام: ﴿وَيَاكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد: ١٢]، وقوله عز وجل: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]؛ أي: جزاء ما كانوا يعملون، وفي معناه أنشدوا: نَهَارُكَ يَا مَغْرُورٌ سَهُوٌ وَعَفْلَةٌ وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدى لَكَ لَا زِمٌ وَسَعْيُكَ فِيمَا سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّةٌ كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ^(١) وقد ورد في الحديث: «إنَّ اللهَ ملائكةَ يطوفونَ في الطرقِ يلتمسونَ أهلَ الذِّكرِ؛ فإذا وجدوا قوماً يذكرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ، نادوا: هلمُّوا إلى حاجتكم، قال: فيحْفُونهم بأجنحتهم إلى السَّماءِ...» الحديث، رواه الشَّيْخَانِ^(٢).

(١) البيتان لعبد الأعلى القرشي، انظر: «الحماسة البصرية» (٢/ ٤٢٧). وكان عمر بن عبد العزيز يتمثلها كثيراً، كما في «الزهد» لابن أبي الدنيا (٤٥٧).

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (٢٦٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي حديثٍ رواه مسلمٌ وغيره: «لا يقعدُ قومٌ يذكرونَ اللهَ تعالى إلا حَفَّتْهُمُ الملائكةُ وغشيتْهُمُ الرحمةُ، ونزلتْ عليهم السَّكِينَةُ، وذكرَهُمُ اللهُ فيمن عنده»^(١)؛ أي: من أرواحِ الأنبياءِ والمرسلينَ ومن حمَلَةِ العرشِ والملائكةِ المُقَرَّبِينَ؛ مباهاةً بعبادِهِ المؤمنينَ المُخلصينَ.

وفي البيتِ إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، فقيل: هي الرِّزْقُ الحلالُ؛ فإنه يؤدِّي إلى العبادة لا محالً، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقيل: هي القناعة؛ لأنها تُورثُ الطاعة، وقيل: هي حلاوة الطاعة؛ فإنها تجرُّ إلى زيادة العبادة، وقد وردَ في الدعواتِ النبوية: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ عِيشَةً نَّقِيَّةً، وَمِيتَةً سَوِيَّةً»^(٢).

ثم زُبِدةُ الكلامِ وعمدةُ المَرامِ: أن الإنسانَ مُرَكَّبٌ من نُعوتِ الملائكةِ وصفاتِ الحيوانِ؛ فإنْ غلبتْ عليه أحوالُ الملائكةِ الأعلى؛ غَلَبَ عليهم في الدَّرَجَاتِ العُلَى، وإنْ غلبتْ عليه أحوالُ السَّبعِيَّةِ وأوصافِ البهيمية؛ نَزَلَ إلى الدَّرَجَاتِ السُّفْلِيَّةِ، ودخلَ فيما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا لَمُشَاهَدَةِ الْمُحِبِّينَ وَتَارَةً أُخْرَى يُخْرَجُ مِنْهُ قِطْعَةٌ يَجْعَلُهَا نَعْلًا لِّلْمُرْكُوبِ؛ فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الْمَرَاتِبَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ مِنْ عَالَمِ الْحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانِ وَالنباتاتِ والجَماداتِ بتَشْرِيفٍ فَضْلِيٍّ وَتَكْرِيمٍ عِنْدِي، أَلْفَنُفْلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وانتقلَ إلى نارِ جهنَّمَ هُم فيها خالِدُونَ.

وقد شَبَّهَ جنسَ الحيوانِ الشَّامِلِ لِلْإِنْسَانِ بجنسِ الحديدِ في كَيْرِ الحَدَّادِ؛ فَإِنَّهُ يُخْرَجُ مِنْهُ تَارَةً قِطْعَةً، يَسْتَعْمَلُ مِنْهَا مِرَاةً لِمُشَاهَدَةِ الْمُحِبِّينَ، وَتَارَةً أُخْرَى يُخْرَجُ مِنْهُ قِطْعَةً يَجْعَلُهَا نَعْلًا لِّلْمُرْكُوبِ؛ فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الْمَرَاتِبَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ مِنْ عَالَمِ الْحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانِ وَالنباتاتِ والجَماداتِ بتَشْرِيفٍ فَضْلِيٍّ وَتَكْرِيمٍ عِنْدِي،

(١) رواه مسلم (٢٧٠٠)، وابن حبان (٨٥٥)، وأحمد (٩٢ / ٣) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه الحاكم (١٩٨٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٢٨٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

بالنسبة إلى أوليائه من بين عباده لا سيما الفرد الأكمل والرسول الأفضل، عليه من التحيات أتمها، ومن الصلوات أعمها، وكتخصيص البيت والحجر والمقام وناقصة صالح وكلب أصحاب الكهف وسائر الأنام، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

فِيَا دُرَّةً بَيْنَ الْمَزَابِلِ أُلْقِيَتْ وَجَوْهَرَةً بَيَعَتْ بِأَخْسٍ قِيَمَةٍ (المَزَابِل) جمع مَزْبِلَةٍ، وهو مكانُ الزَّبَلِ من الأنجاس والأوساخ، والبَخْسُ: النقص، و(دُرَّةً) منصوبةٌ على أنها نكرةٌ غيرُ مقصودةٍ؛ كقولهم: يا رجلاً خذْ بيدي، والمرادُ بالْمُنَادَى المُشَبَّهَ بها؛ فليس من قبيل: ﴿يَحْشَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠] في النداء المجازي، و(أُلْقِيَتْ) صفتها؛ أي: طُرِحَتْ بَيْنَ الْمَزَابِلِ، و(جَوْهَرَةً) عطفٌ على (دُرَّةً)، والفاءُ تَفْرِيعِيَّةٌ على ما قبلها من الجُمْلِ الإنكاريَّة.

والمعنى: فَيَا أَيُّهَا الْمُشَبَّهُ بِاللُّوْلُو المَكْنُونِ الذي كَانَ مَكَانَهُ الصَّدْفُ المَصُونُ، باعتبار أصلِ فطرته السَّليمة وخلقته المُستقيمة اللَّائِقُ به أن يكونَ هِمَّتُهُ عَالِيَةً بحيثُ لَا يَرْضَى إِلَّا أن يكونَ في الدُّنْيَا في عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ، وفي العُقْبَى في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ؛ لأنها محلُّ الدُّرَرِ وَمَنْبَعُ جَوَاهِرِ الْغُرَرِ، أُلْقِيَتْ في مَزَابِلِ الدُّنْيَا الدُّنْيَةِ، وطُرِحَتْ في مَنَازِلِ الْهَوَى السُّفْلِيَّةِ، ونَسِيَتْ وَطَنَهَا الْأَصْلِيَّ، وَغَوِيَتْ مَكَانَهَا الْفَضْلِيَّ، الذي خَلَقَ اللهُ أَصْلَهُ فِيهِ، وَأَسْكَنَهُ وَأَخْرَجَهُ لِيَعْرِفَ رَبَّهُ كَمَالَ الْمَعْرِفَةِ، وَيَعْلَمَ قَدْرَ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَأَكْرَمَهُ.

وَيَا مُشَبَّهًا بِجَوْهَرَةٍ أُبْدِلَتْ بِأَخْسَ مَدْرَةٍ أَوْ حَجَرَةٍ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قِيَمَتَهَا، وَلَيْسَ لَهُ حِطٌّ مِنْ رُؤْيَيْهَا، فَيَكُونُ كَالْبَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَ تَمَيِّزُ عِنْدَهَا، بَلْ أَضَلُّ مِنْهَا، حَيْثُ لَمْ يُفَرِّقْ هُوَ بَيْنَ الْأُمُورِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا، وَهِيَ تُفَرِّقُ بَيْنَ حُلُوِّ مَذَاقِهَا وَمُرِّهَا.

والمقصودُ من هذا النداء والخطاب إنما هو التنبية، والعتابُ من جهة الغفلة عن معرفة نفسه وعدم التأمل في مُحَاسِبَةِ يَوْمِهِ وَأَمْسِهِ؛ فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ

فقد عَرَفَ رَبَّهُ بالرُّبُوبِيَّةِ، وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بالفَقْرِ والفَنَاءِ؛ عَرَفَ رَبَّهُ بِالْغِنَى والْبَقَاءِ، وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِالذُّلِّ والعَجْزِ؛ عَرَفَ رَبَّهُ بِالْقُوَّةِ والعِزِّ.

والحاصلُ: أَنَّ نَفْسَ الْإِنْسَانِ لَهَا الْقَابِلِيَّةُ الْعَظِيمَةُ؛ فَإِنْ تَطَهَّرَتْ عَنِ الذُّنُوبِ الْجَسِيمَةِ وَلَمْ تَتَلَوَّثْ بِالْعُيُوبِ الْوَسِيمَةِ وَصَلَتْ إِلَى الْمَرَاتِبِ الْعَلِيَّةِ، وَالْمَقَامَاتِ الرَضِيَّةِ، وَالْحَالَاتِ السَّنِيَّةِ الْبَهِيَّةِ، الَّتِي فَازَ بِهَا السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ الصَّافِيَّةُ مِنَ الْحُضُورِ مَعَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْوُصُولِ إِلَى لِقَائِهِ فِي الْعُقْبَى، وَإِنْ تَنَجَّسَتْ بِقَاذُورَاتِ الْمَعْصِيَةِ وَتَلَطَّخَتْ بِأَقْدَارِ التَّعَلُّقَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ الدَّنِيَّةِ؛ وَقَعَتْ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ مِنَ الْمَرَاتِبِ الطَّبَقِيَّةِ، وَبُعِدَتْ عَنِ مَنَازِلِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ، وَحُرِمَتْ عَنِ الْأَعْمَالِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُبْرَأَةِ عَنِ الْحَالَاتِ الرِّيَاسِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ؛ فَيَا خَسَارَةً لَدَيْهَا.

قَالَ الْغَزَالِيُّ: مَنْ كَانَ لَهُ جَوْهَرٌ نَفِيسٌ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَأْخُذَ فِي ثَمَنِهِ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ، فَبَاعَهُ بِفُلَيْسٍ؛ أَلَيْسَ يَكُونُ ذَلِكَ خُسْرَانًا عَظِيمًا، وَغُبْنًا جَسِيمًا، وَدَلِيلًا بَيِّنًا عَلَى خِسَّةِ الْهِمَّةِ وَقُصُورِ الْعِلْمِ وَضَعْفِ الْفِطْنَةِ، وَمَا يَنَالُهُ الْعَبْدُ بِعَمَلِهِ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ مِدْحَةٍ وَحِطَامٍ بِالْإِضَافَةِ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ وَشُكْرِهِ وَثَنَائِهِ وَثَوَابِهِ لِأَقَلِّ مَنْ فُلَيْسٍ فِي جَنْبِ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ، بَلْ فِي جَنْبِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَكْثَرُ.

أَفَلَا يَكُونُ مِنَ الْخُسْرَانِ الْمُبِينِ أَنْ تُفَوِّتَ نَفْسَكَ تِلْكَ الْكِرَامَاتِ الْعَزِيزَةَ الشَّرِيفَةَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الْحَقِيرَةِ الدَّنِيَّةِ، ثُمَّ إِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ لَكَ مِنْ هَذِهِ الْهِمَّةِ الْخَسِيسَةِ؛ فَاقْصِدْ أَنْتَ الْآخِرَةَ تَتَبَعَكَ الدُّنْيَا، بَلْ اطْلُبِ الرَّبَّ وَحْدَهُ يُعْطِكَ الدَّارَيْنِ؛ إِذْ هُوَ مَالِكُهُمَا جَمِيعًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [الليل: ١٣]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَلَا يُعْطِي الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا»^(١).

(١) أوردته السمعاني في «تفسيره» (٥ / ٧٢) من حديث قتادة بن دعامة.

فإن أنت أخلصت النية، وجردت الهمة للآخرة؛ جعلت لك الآخرة والدنيا جميعاً؛ وإن أردت الدنيا ذهبت عنك الآخرة في الوقت، وربما لا تنال الدنيا كما تريد، وإن نلتها، فلا تبقى لك، فتكون قد خسرت الدنيا والآخرة؛ فتأمل أيها العاقل الغافل، يجعلك العامل الكامل.

أَفَإِنْ بَاقٍ تَشْتَرِيهِ سَفَاهَةً وَسُخْطٌ بِرِضْوَانٍ وَنَارٌ بِجَنَّةٍ
الهمزة للإنكار، وهو مُنْصَبٌّ على (تشتريه)، وضميره راجع إلى الفاني،
(فانٍ) و(باقٍ) اسما فاعلٍ حُذِفَ يَأْوُهُمَا لاسْتِقْثَالِ الضِّمَّةِ عَلَيْهَا وَالتَّقَاءِ
السَّاكِنِينَ بَعْدَ حَذْفِهَا، وَالْأَوَّلُ مَرْفُوعٌ تَقْدِيرًا كَمَا أَنَّ الثَّانِي مَجْرُورٌ مَقْدَرًا، وَنَصَبُ
(سَفَاهَةً) عَلَى الْعَلَّةِ، أَوْ عَلَى التَّمْيِيزِ، وَمَعْنَاهَا: الْجَهَالَةُ، وَ(سُخْطٌ) بِالرَّفْعِ عَطْفٌ
عَلَى (فانٍ) وَهُوَ بَضْمُ السَّيْنِ وَسَكُونُ الْخَاءِ؛ لُغَةٌ فِي السَّخَطِ -بِفَتْحَتَيْنِ- وَمَعْنَاهُ:
الغضب، وَلِذَا قَابِلُهُ (بِرِضْوَانٍ) وَهُوَ بِكسْرِ الرَّاءِ وَضَمِّهَا بِمَعْنَى الرِّضَا، وَ(نَارٌ)
بِالرَّفْعِ أَيْضًا، وَالتَّرْكِيبُ مِنْ قَبِيلِ الْعَطْفِ عَلَى مَعْمُولِي عَامِلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ.
وَالْبَيْتُ فِيهِ الطَّبَاقُ مِنَ الْبَدِيعِ؛ فِي ثَلَاثِ مَوَاضِعَ.

ومعناه مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَت
يَعْمَلُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، وَمُسْتَفَادٌ مِنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ
اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦].

يعني: أيها العاقل الغافل عن وصف الكامل! أتشتري وتختار الأمر الدني
الفاني، وتبذل وترك الأمر العلي الباقي لأجل جهالتك بحقيقة الأمر، أو من
جهة ضلالتك عن معرفة القدر؛ فإن الدنيا لو كانت ذهباً فانياً والآخرة كانت
خزفاً باقياً لكان مقتضى العقل أن يختار الخزف الباقي على الذهب الفاني،
فكيف وإن القضية مُنْعَكِسَةٌ وَالْقِصَّةُ مَنْطَمَسَةٌ، وَهِيَ مُشَاهِدَةٌ فِي نَظَرِ الْعَارِفِينَ،

ومكشوفة في بصر الناظرين، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠] ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]؛ أي: في كيفية السُّرورِ وكمية الحُبورِ.

وقد قال الغزالي: أقل العلم بل أقل الإيمان أن يعرف مسالك طريق الإيقان أن الدنيا فانية، وأن الآخرة باقية، ونتيجة هذا العلم وثمره هذا الإيمان أن يُعرض عن الفاني، ويُقبل على الباقي؛ فينبغي للمريد وطالب المَزِيد أن يجعل الدنيا وسيلة للعقبى، ووصيلة للوصول إلى المراتب العُلَيَا، ومن المعلوم أن الجمع بينهما على وجه الكمال من جملة الأمور المُتَعَسِّرة أو المُتَعَذِّرة القريبة إلى المُحَالِ، ولذا قال عيسى عليه السلام: يا طالب الدنيا لَتَبَر، تركك للدنيا أبر^(١).

وفي حديث النبي الأكمل: «لو أن رجلاً في حُجره دراهم يَقسِمُها، وآخر يذكر الله لكانَ الذاكرُ اللهُ أَفْضَلَ»^(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿مَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ فلا تظنَّ أن أحداً من الصَّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين كان يُريدُ الدُّنْيَا لذاتها، بل كان بعضهم أرادها ليستعين بها على الأخرى ولذاتها، ومع هذا لَمَّا سَمِعَ الشُّبْلِيَّ هذه الآية صاحَ صَيحَةً من غلبة الحال، وقال: آه آه، فأين مَنْ يُريدُ الله، وأجبنا في «شرح حزب الفتوح» عن هذا السؤال بلسانِ القالِ والحال؛ ختمَ اللهُ لنا بحسنِ المَالِ.

أَنْتَ عَدُوٌّ أَمْ صَدِيقٌ لِنَفْسِهِ فَإِنَّكَ تَرْمِيهَا بِكُلِّ مُصِيبَةٍ

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧ / ٤٢٧) من حديث سفيان الثوري.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦ / ١١٦) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. ورجاله وثقوا، كما في «مجمع الزوائد» (١٠ / ٧٤)، وحسنه المُنْذِرِيُّ في «الترغيب والترهيب» (٢٣١٠).

الهمزة للإنكار زيادة للزجر عن الإصرار، و(عدو) فعول؛ يصدق على المفرد والجمع، و(أم) متصلة، و(صديق) بمعنى مُحِبٍّ، عطف على (عدو)، و(لنفسه) متعلق الوصفين على سبيل التنازع، والمراد بالمُصِيبَةِ: المعصية، وما يُصِيبُ السَّالِكَ من النقصان في الطاعة، وفي المصراع الأول من صنعة البديع: طباق المُقابلة.

والمعنى: أنت باختيارك الدنيا وإعراضك عن العقبى ممن هو عدو لنفسه النفيسة أم صديق لروحه الدسيسة؛ فإنك ترميها كل ساعة في معصية هي أقوى من كل مُصِيبَةٍ؛ فإنَّ مَحَنَ الدُّنْيَوِيَّةِ مَنَحُ الْأُخْرَوِيَّةِ، وَالنَّعَمَ الْعَاجِلَةَ هِيَ النَّقْمُ الْأَجَلَةُ، وَأَعَدَى عَدُوَّكَ نَفْسَكَ الَّتِي بَيْنَ جَنِيِّكَ، حَيْثُ لَمْ تَدْرِ دَسَائِسَهَا الْآتِيَةَ مِنْ جَانِبِكَ؛ فَاشْتَغَلْ بِمُخَالَفَتِهَا فِي هَوَاهَا، وَاصْرِفْ عَنَّا تَوَجُّهَكَ إِلَى مَا يَنْفَعُهَا فِي دِينِهَا وَدُنْيَاهَا.

ثم احذر من تلبس إبليس، الذي وصَّاكَ اللهُ تعالى بَعْدَاوَتِهِ، وَيَنْ لَكَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ مُشِيرًا إِلَى عِلَّتِهِ؛ مِنْهَا: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

فَمَنْ كَانَ صَدِيقًا لِنَفْسِهِ مَا سَمِعَ كَلَامَ عَدُوِّهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَدُوًّا لِنَفْسِهِ لَمْ يَتَّبِعْ عَدُوَّهُ، وَلَا مَشَى فِي إِثْرِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وسبحان الله ما أعظم الله في ما قدره وقضاه؛ حيث كل من عباده يُظهر أنه من أهل محبته، ومع هذا ما يخلو سالك عن مُخَالَفَتِهِ، وَكُلُّ يُغْضُونَ الشَّيْطَانَ وَهُمْ مُتَّفِقُونَ فِي مُوَافَقَتِهِ وَمُتَابَعَتِهِ، فَنَرَجُو مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَعْفُوَ عَنْ مُخَالَفَتِهِ بِرِكَهٍ مَحَبَّتِهِ، وَيَغْفِرَ مُوَافَقَةَ الشَّيْطَانِ بِسَبَبِ بُغْضِهِ وَعَدَاوَتِهِ، وَقَدْ أَشَارَ صَاحِبُ «الْبُرْدَةِ»، وَطَالِبُ الْبُرَّةِ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَأَوْمَأَ إِلَى هَذَا الْمُعِينِ؛ حَيْثُ قَالَ:

وَخَالَفَ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَأَعْصَمَهُمَا وَإِنْ هُمَا مُحَضَّكَ النَّصْحَ فَاتَّهَمَ

فإن أردت شرحه مع البيت الذي بعده؛ فعليك بشرحنا المُسمَّى بـ «العمدة في شرح البردة»^(١).

ثم الفرق بين الخطرة النفسانية واللمة الشيطانية: أن الأولى هي متابعة اللذة بخصوصها أعم من أن تكون صالحة أو طالحة في حد ذاتها، والثانية هي إرادة المعصية بعمومها وجدت في أي فرد من أفرادها.

ثم من أحوال النفس الرديئة وإرادتها واختيارها الأمور الدنيئة: أنها في حال الشهوة بهيمة، وفي حال الغضب سبُع، وفي المصيبة طفل، وفي النعمة فرعون، وفي الجوع مجنون، وفي الشبع مُختال؛ إن أشبعتها بطرت، وإن جوعتها جَزَعَتْ؛ فهي كحمار السوء؛ إن أقضمتَه رَمَحَ وَخَنَقَ^(٢)، وإن جاعَ حَمَقَ وَنَهَقَ؛ فنعودُ بالله من شرور أنفسنا، وما أحسن ما قال من أهل الحال:

تَوَقَّى نَفْسَكَ لَا تَأْمَنْ غَوَائِلَهَا فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانًا^(٣)
وَلَوْ فَعَلَ الْأَعْدَا بِنَفْسِكَ بَعْضَ مَا فَعَلْتَ لَمَسَّتْهُمْ لَهَا بَعْضُ رَحْمَةٍ
(الأعداء) بالمدِّ جمعُ عدوٍّ، قُصِرَ للضرورة، والباءُ للتعدية، و(بَعْضُ) الأول منصوبٌ على أنه مفعولٌ به، و(بَعْضُ) الثاني مرفوعٌ على أنه فاعلٌ (مست) بمعنى أصابت، واكتسبَ التأنيث من المضاف إليه، وهو الرَّحْمَةُ.

يعني: وأنت لكونك لم تعرفِ العداوة من الصداقة، ولم تُميز بين المحبة والبغضة؛ حيث تفعل أشياء من السيئات تضرك في دينك ودنياك حتى لنفسك وهواك، وتترك أشياء من الطاعات لو فعلتها لنفعتك في دنياك وأخراك، وكيفيك هذا

(١) وقد قمنا بتحقيقه ونشره ضمن هذا المجموع المبارك، فله الحمد.

(٢) رَمَحَ: أي: ضَرَبَ بِرِجْلِهِ. وَخَنَقَ: غَضِبَ وَاغْتَاطَ.

(٣) البيت أورده ابن الجوزي في «بحر الدموع» (ص ١٢١).

أَنَّكَ فِي ارتكَابِ المحظوراتِ واجتنابِ الطاعاتِ مخالفٌ لربِّكَ وموافقٌ لشیطانِكَ ونفسِكَ؛ بحيثُ لو فعلَ جميعُ الأعداءِ بنفسِكَ بعضَ ما فعلتَ أنتَ بالنسبةِ إلى نفسِكَ لأصابتِ الأعداءُ بعضَ الرَّحمةِ لها، وأنتَ فعلتَ هذه الأشياءَ جميعها ولم ترحمَ نفسك بالرجوعِ إلى مَرَضَةِ ربِّكَ، والحالُ أن الله تعالى غنيٌّ عن عبادتِكَ وطاعةِ غيرِكَ، وإنما يرجعُ نفعُ صلاحِكَ في الحالِ والمآلِ إلى أمرِكَ؛ قَالَ تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، وَقَالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وفي الحديثِ الصحيح: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»^(١)، وفي حديثٍ آخر: «مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ»^(٢).

فَمَنْ لَا يَرْحَمُ نَفْسَهُ الَّتِي هِيَ أَعَزُّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ بِإِقَاعِهَا فِي أَحْسَنِ الصِّفَاتِ لَدَيْهِ، كَيْفَ يُرْجَى أَنَّهُ يَرْحَمُ غَيْرَهُ أَوْ يَدْفَعُ عَنِ النَّاسِ ضَيْرَهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِصِفَةِ الرَّحْمَةِ اسْتَحَقَّ أَنْ يُعَاقَبَ بِالْمَذَلَةِ.

فاسْتَمِعِ المَوْعِظَةَ والنَّصِيحَةَ قَبْلَ وَقُوعِكَ فِي الخِزْيِ والفَضِيحَةِ مِنَ النَّذِيرِ العَرِيَانِ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ غَرَضٌ سِوَى رِضَا الرَّحْمَنِ فِي مَحَبَّةِ الإِخْوَانِ، جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فِي دَارِ الرُّضْوَانِ، وَتَأَمَّلْ فِي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الَّذِي صَدَّرَ بِهِ الْكِتَابَ الْكَرِيمَ، وَاقْتَصِرَ مِنْ بَيْنِ أَوْصَافِهِ عَلَى الْوَصْفَيْنِ الْمَخْصُوصَيْنِ إِشَارَةً إِلَى عُمُومِ رَحْمَتِهِ فِي الدَّارَيْنِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الثَّقَلَيْنِ؛ إِيْمَاءً إِلَى أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ وَغَلَبَتْ عِقَابَهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وَتَدَبَّرْ أَنَّكَ إِذَا سَلَبْتَ الرَّحْمَةَ عَنْ نَفْسِكَ تَكُونُ مَسْلُوبَ الرَّحْمَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ، وَيَلْزَمُ مِنْهُ حُصُولُ عَذَابِكَ، وَوُصُولُ عِقَابِكَ؛ فَدُمْ عَلَى هَذَا الدَّعَاءِ فِي الصَّبَاحِ

(١) رواه البخاري (٥٦٥١)، ومسلم (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٩٤١)، ومسلم (٢٣١٩) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

والمساء: «اللَّهُمَّ! ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني، يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين»^(١).

لَقَدْ بَعَثَهَا حَرَّى عَلَيْكَ رَخِصَةً وَكَانَتْ بِهَذَا مِنْكَ غَيْرَ حَقِيقَةٍ
اللام جوابٌ لقسمٍ مُقَدَّرٍ، والضميرُ في (بَعَثَهَا) للنفس، و(رَخِصَةً) حالٌ منها، و(حَرَّى عَلَيْكَ) جملةٌ مُعْتَرِضةٌ؛ أي: احتراقي ثابتٌ عليك وتأسُفي حاصلٌ لديك، ويُؤَيِّدُهُ ما في نسخة (حُزني عَلَيْكَ)، وضميرُ (كانت) اسمُها، وخبرُها (غَيْرَ حَقِيقَةٍ) بمعنى لا ثقة، ولو قال: (حَرِيَّة) موضع (حَقِيقَةٍ) لكان أولى؛ لحصول نوعٍ من الجنس في صنائع البديع.

ومعناه: والله لقد بعثت نفسك النفيسة المُشَبَّهَةَ بالدُّرَّة المكنونة والجوهرية المصونة التي لا يعلم قدرها إلا خالقها ومُصَوِّرُها ومُرَبِّيها ومُصْلِحُها وحافِظُها ورازقُها بالقيمة الخسيسة والخسارة الدَّسِيسَةِ، واخترت في مُقَابِلِها توهُمَ الحُظُوظِ الدُّنْيَوِيَّةِ الدَّنِيَّةِ، وتصورَ الشَّهَوَاتِ واللَّذَاتِ النفسية البهيمية، المؤدية إلى الدَّرَكَاتِ الجَحِيمَةِ والشَّرَابَاتِ الحَمِيمَةِ حالَ كونها رخيصةً، حيثُ كانت تصلحُ أن تكونَ قيمةً للدرجاتِ العالية، والمنازلِ العالية، في جنةٍ نعيمٍ ونيعمٍ مقيمٍ، وقُربِ ربِّ كريمٍ، ولهذا حُزني وتأسُفي عَلَيْكَ حاصلٌ، وحَرِّي واحتراقُ قلبي لديك. واصلٌ، وكانت نفسك التي هي أقربُ الأشياءِ إِلَيْكَ، وأعزُّ الأشياءِ لديك غيرُ حَرِيَّةٍ وحَقِيقَةٍ ولا ثِقَةٍ بهذا البيع الذي صدرَ منك.

وبهذه الخسارة التي ظهرت منك حيثُ فاتك من البيع ما قال الله تعالى في حقِّه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي

(١) رواه الترمذي (٣٥٧٠)، والحاكم (١١٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو ضمن دعاء الحفظ الذي علَّمه إياه رسولُ الله ﷺ.

سَكِيلِ اللَّهِ فَيَقْنُلُونَ وَيُقْنَلُونَ^ط وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ^{هـ} وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿التوبة: ١١١﴾.

ثم وصف سبحانه وتعالى أهل هذه البيعة بقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُتَكَبِّرُونَ الْمَتَّقُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].
وقال في موضع آخر: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].
وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].
وقد قال في موضع من كتابه في حق الكفار وإخوانهم من الفجار: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْقُقُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦]، وفي آية أخرى: ﴿فَمَا رِيحَتِ بِجَنَّتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

فَوَيْكَ اسْتَفَقَ لَا تَفْضَحْنَهَا بِمَشْهَدٍ مِّنَ الْخَلْقِ إِنْ كُنْتَ ابْنُ أُمِّ كَرِيمَةٍ
قال الكسائي: (ويك) بمعنى (وَيْلَكَ)^(١)، وفي «القاموس»: (وَيْ) كلمة تعجب: يُقَالُ: وَيْكَ، وَوَيْ لزيد، وَيُكْنَى بها عن الوَيْل، وقوله: (استَفَقَ) أمرٌ من الاستفاقة، وهي طلبُ الإفاقة من الإغماء، أو الجنون أو السكر أو النوم، وفضحه كمنعه: كشف

(١) انظر: «الخصائص» لابن جني (٣/ ٤٢)، و«مغني اللبيب» لابن هشام (١/ ٤٨٣).

مَسَاوَهُ فَافْتَضَحَ، وَالْمَشْهَدُ: اسْمُ مَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ؛ مِنَ الشُّهُودِ بِمَعْنَى الْحُضُورِ، وَالكَرْمُ مُحَرَّكَةٌ: ضِدُّ اللَّوْمِ؛ فَكَرِيمَةٌ نَقِيضٌ لَكَيْمَةٍ، وَيُقَالُ: أَرْضٌ كَرِيمَةٌ؛ أَي: طَيِّبَةٌ، وَأَبْوَانٍ كَرِيمَانٍ مُؤْمِنَانِ، وَالْفَاءُ فِي أَوَّلِ الْبَيْتِ فَصِيحَةٌ.

أَي: إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ مِنَ الْغَفْلَةِ وَعَدَمِ الْإِسْتِعْدَادِ لِمَا هُنَالِكَ بِنَاءً عَلَى أَنَّكَ سَكْرَانٌ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا، أَوْ مَجْنُونٌ لَيْسَ لَكَ عَقْلُ الْعُقْبَى؛ فَوَيْلَكَ أَطْلَبِ الْإِفَاقَةَ مِنْ نَوْمِ غَفْلَتِكَ إِلَى يَوْمٍ يَقْطُتَكَ، وَالْعَمَلُ بِمُقْتَضَى الْعَقْلِ لِأَمْرِ دِينِكَ وَنَفْعِ آخِرَتِكَ حَتَّى لَا تَكُونَ سَبَبًا لِفَضِيحَةٍ نَفْسِكَ فِي مَوْقِفٍ مُخَالَفَةٍ نَصِيحَةِ رَبِّكَ فِي مَحْضَرٍ مَنْ خَلَقَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَالْمَلَائِكَةَ الْمُقَرَّبِينَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ، الْمُعْبَّرُ عَنْهُ بِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، حِينَ قَالَ الْخَلِيلُ الْجَلِيلُ فِي دَعَائِهِ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]، وَقَالَ الْحَبِيبُ الطَّيِّبُ فِي مُنَاجَاتِهِ: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ، بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحریم: ٨].

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ مِنْ هَوْلِ هَذَا الْيَوْمِ انْقَطَعَ قُلُوبُ الْقَوْمِ، وَقَدْ وَرَدَ: «لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ، لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا»^(١).

وَرُوي: أَنَّ الْمُنَادِيَ يُنَادِي مِنَ السَّمَاءِ: لَيْتَ هَذَا الْخَلْقَ لَمْ يُخْلَقُوا، وَلَيْتَهُمْ إِذَا خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا^(٢).

وَعَنِ الصَّدِيقِ الْأَكْبَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ قَالَ: وَدِدْتُ أَنِّي أَكُونُ خَضِرًا تَأْكُلُنِي الدَّوَابُّ مَخَافَةَ الْعَذَابِ^(٣)، وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْفَارُوقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٧٢١)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٥٩) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي «حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ» (٨/ ١٥٨) مِنْ قَوْلِ وَهْبِ بْنِ مُنْبَهٍ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي الْإِنْجِيلِ.

(٣) رَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى» (٣/ ١٩٨)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «الْمُتَمَنِّينَ» (١١) عَنْ قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

إنساناً يقرأ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١]، فقال: لَيْتَهَا تَمَّتْ^(١).

وعن الفضيل: أنه قال: إني لا أغبط ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا، ولا عبداً صالحاً؛ أليس هؤلاء يعاينون القيامة، إنما أغبط من لا يخلق، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ^(٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ^(٣٥) وَصَدِيقِيهِ^(٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧]، وقال عز وجل: ﴿يُودُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ^(١١) وَصَدِيقِيهِ^(١٢) وَأَخِيهِ^(١٣) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبَعُ^(١٤) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ [المعارج: ١١ - ١٤].

فلا حيلة للعبد إلا الاعتصام بحول الله وقوته؛ بالعصمة عن معصيته، والإعانة على طاعته المقرونة بالإخلاص الموجب للخلاص والقبول من كرمه العليم، وحسن الخاتمة بفضل القديم؛ إنه رؤوف رحيم.

فَبَيْنَ يَدَيْهَا مَوْقِفٌ وَفَضِيحَةٌ يُعَدُّ عَلَيْهَا كُلُّ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ
الفاء للتفريع، و(بينَ) ظرف، وهو خبر مقدم، وقوله: (مَوْقِفٌ) مبتدأ مؤخر، لكونه نكرة، والضمير في (يَدَيْهَا) للنفس، والمَوْقِفُ: مصدرٌ ميميٌّ، أو اسمُ مكانٍ، أو زمانٍ، وأوسطها أظهرها^(٢)، و(فَضِيحَةٌ) عطفٌ عليه، والتنوينُ فيهما^(٣) للتعظيم، و(يُعَدُّ) مجهولٌ من العدِّ، أو من الإعداد، و(كُلُّ) مرفوعٌ على نيابةِ الفاعل، والمِثْقَالُ: معناه المقدار من الوزن، والذرة: النملة الصغيرة، أو الهباء الحقيق.

والمعنى: أيها الغافل عن الساعة والعاطل عن الطاعة، والمتكاسل عن

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٢٣٥)، وابن أبي الدنيا في «المتن» (١١) عن زياد بن مخراق.

(٢) أي: أنها اسم مكان.

(٣) أي: في مَوْقِفٍ وَفَضِيحَةٍ.

العبادة، والمائل إلى التنعيم والراحة لنفسه الأمانة في طلب هواها وميلانها إلى
تحصيل شهوات هذه الدار الغدّارة.

فاعلم أن بين يدي النفس وقّادها موقفٌ مُشتملٌ على مواقف كثيرة أمانة؛ من شدة
الحساب، وإعطاء الكتاب، وحضور الميزان، ومرور الصراط، وعُبور الحوض، ودخول
الجنة أو النار، ومراتب أهل السعادة، ومنازل أهل الشقاوة، والدرجات العلية، والدرجات
السفلية، مما يُوجب تصوُّرها وتعقلها أن لا يكون للنفس ساعة من الاستراحة إلا في
تحصيل ما يقتضي في عاقبة أمره الراحة؛ من ارتكاب المأمورات، واجتناب المحظورات؛
فإن الكرام الكاتبين المأمورين من رب العالمين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما
يؤمرون، فيكتبون على الخلق جميع ما يفعلون، فيعدُّ على كل نفس ما كسبت وهم لا
يظلمون؛ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، بل كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، ﴿[الزلزلة: ٧-٨]؛ فهذه السورة هي
الجامعة المانعة، والفائدة الجالبة الدافعة، ولذا ورد في حقها: أنها نصف القرآن^(١)؛ لما
اشتمل على التقوى التي بها يحصل الفرقان، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَنْفُوا
اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾
[الأنفال: ٢٩].

وفي الحديث: أن رجلاً قال: يا رسول الله! أقرئني سورة جامعة؛ فأقرأه
رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ حتى فرغ منها، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق؛
لا أزيد عليه أبداً - يعني: كأنه قال: حسبي ما سمعت - ولا أبالي أن لا أسمع
غيرها؛ لاشتمالها على شر الأمور وخيرها، ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ:
«أفلح الرويجل» مرتين^(٢)، والتعظيم لبعد غوره في علمه وقوة إدراكه في فهمه.

(١) رواه الترمذي (٢٨٩٤)، والحاكم (٢٠٧٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه أبو داود (١٣٩٩)، والحاكم (٣٩٦٤)، وابن حبان (٧٧٣)، وأحمد (١٦٩ / ٢) من حديث =

فعلى السالك أن لا يترك شيئاً من السيئات إلا اجتنبها، ولا يدع أمراً من الطاعات إلا ارتكبها، ولا يحتقر شيئاً منها، ولا يعرض في جميع الأحوال عنهما^(١)؛ أما سمعت: أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت تأكل العنب، فسألها سائل بحسن الأدب؛ فأمرت بمناولته حبة، وأرادت بها قربة، فاستقلها السائل؛ نظراً إلى عرف الناس وعاداتهم في المحافل؛ فقالت عائشة رضي الله عنها: هذه الحبة تأتي كذا من الذرة^(٢)، ويأتي ما يترتب على قبولها من الجوهرة والذرة، وفي الحديث: «اتقوا النار ولو بشق تمر»^(٣).

يوم تحسّر النفس ولا تنفعها الحسرة؛ حيث ما نظرت إلى الدنيا بعين العبرة، ولا خرجت من عينها قطرة من العبرة، وأما الفضيحة الناشئة من عدم قبول النصيحة؛ فثنتان: إحداهما: فضيحة السر، وهي على رؤوس الملائكة، وذلك ما روي: أن الملائكة تصعد بعمل العبد مبتهجين، فيقول الله تعالى: رُدُّوه إلى سجين؛ فإنه لم يُرَدني به؛ فيفتضح ذلك العمل والعبد عند الملائكة^(٤).

والثانية: فضيحة العلانية، وهي يوم القيامة على رؤوس الخلائق؛ روي عن النبي ﷺ: «أن المُرَائِي يوم القيامة يُنادى بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر! ضل سعيك، وبطل أجرُك، ولا خلاق لك؛ التمس الأجر ممن كنت تعمل له يا مخادع»^(٥).

= عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(١) أي: عن الاجتناب والارتكاب.

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (٩٩٧/٢) بلاغاً، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣٩٦٤) عن ظبية بنت المعلل.

(٣) رواه البخاري (١٣٥١)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٤٥٨) من حديث ضمرة بن حبيب، وابن الجوزي في «الموضوعات»

(٣/ ١٥٨) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٥) رواه أحمد بن منيع كما في «المطالب العالية» (٣٢١٥) من حديث رجل من الصحابة رضي الله عنه.

فإذا كان هذا حال العالم العامل إذا لم يكن مُخلصاً، فكيف يكون الجاهل الفاسق مُخلصاً.

وفي نسخة (صَحِيفَةٍ) بدلَ (فَضِيحَةٍ).

كَلِفَتْ بِهَا دُنْيَا كَثِيرٌ غُرُورُهَا تُعَامِلُ مَنْ فِي نُصْحِهَا بِالْخَدِيعَةِ
الكَلْفُ؛ بالكسر: الرجلُ العاشقُ، والكُلْفَةُ بالضم: ما تكلفتُه من نائبةٍ، أو حقٍّ، وكَفَرَحَ: أُولِعَ، وضميرُ (بِهَا) مُبْهَمَةٌ بَيْنَهَا مَا بَعْدَهَا، وَجَمَلَةٌ (كَثِيرٌ غُرُورُهَا) صِفَةٌ لـ (دُنْيَا)، وَفِي (تُعَامِلُ) ضَمِيرٌ لِلدُّنْيَا، وَهِيَ حَالٌ، أَوْ اسْتِنَافٌ مُتَضَمِّنٌ لِلْعَلَّةِ، وَ(مَنْ) مَوْصُولَةٌ مَفْعُولٌ (تُعَامِلُ) حُذِفَ صَدْرُ صَلْتِهِ؛ أَي: هُوَ فِي نُصْحِهَا، وَ(بِالْخَدِيعَةِ) مُتَعَلِّقٌ بـ (تُعَامِلُ).

والمعنى: أُولِعَتْ وَعَشِقَتْ بِمَحَبُوبَةٍ وَهَمِيَّةٍ هِيَ الدُّنْيَا السُّفْلِيَّةُ الدُّنْيَا، الْمُشْغَلَةُ عَنِ الْمَرَاتِبِ الْعَلِيَّةِ، وَالْمُلْهِيَّةُ عَنِ تَحْصِيلِ مَلَكَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، الْمَانِعَةُ عَنِ الْعَوَارِفِ وَالْحَقَائِقِ الْإِلَهِيَّةِ، الْحَاجِزَةُ عَنِ الْمَعَارِفِ وَالِدَقَائِقِ اللَّدْنِيَّةِ، الْبَاعِثَةُ عَلَى التَّوَجُّهِ بِالشَّهَوَاتِ الْبَهِيمِيَّةِ وَاللَّذَاتِ السَّبْعِيَّةِ؛ غُرُورُهَا كَثِيرٌ، وَغَوْرُهَا كَبِيرٌ، وَعَظِيمُهَا حَقِيرٌ، بَلْ هِيَ كَسْرَابٍ بَقِيْعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ، وَصَادَفَ مَا سِوَاهُ فِي الْهَوَى مَبَايِنٌ، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُعَامِلَ مَنْ هُوَ فِي خِدْمَتِهَا مَاشٍ عَلَى النَّصِيحَةِ، وَمَنْ لَا يُبَالِي فِي طَلَبِهَا، الَّتِي طُلَّابُهَا كَلَابٌ مِنَ الْفَضِيحَةِ بِالْخَدِيعَةِ الْعُظْمَى وَالْمَكِيدَةِ الْكُبْرَى مِنْ إِعْرَاضِهَا عَنْهُ وَإِقْبَالِهَا عَلَى مَنْ هُوَ أَدْنَى مِنْهُ، كَمَا أَشَارَ الشَّيْخُ إِلَيْهَا، وَدَلَّ السَّالِكُ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ:

إِذَا أَقْبَلَتْ وَلَّتْ وَإِنْ هِيَ أَحْسَنْتَ أَسَاءَتْ وَإِنْ صَافَتْ فَتَقُ بِالْكُدُورَةِ
(إِذَا) ظَرْفِيَّةٌ لـ (وَلَّتْ)، أَوْ شَرْطِيَّةٌ، وَيُنَاسِبُهُ مَا بَعْدَهَا مِنَ الشُّرُوطِ، وَالتَّوْلِيَةُ: هِيَ الْإِدْبَارُ، وَضَمِيرُ (هِيَ) لِمَجَرَّدِ التَّأَكِيدِ، أَوْ لِإِفَادَةِ الْحَضَرِ، وَ(صَافَتْ) بِالضَّادِ

المُهملة والفاء، وهو من صافى يُصافي، مُفاعلة من الصَّفْو، وبابُ المُفاعلة إذا لم يكن للمُعالية؛ فهي للمبالغة، مع أنه يُمكن تصحيحها من الجانبين، بمعنى أنك تريد صفاءها، وهي تُظهر صفوها وجلاءها، والفاء جزائية، وحذفت فيما قبلها إشارة إلى الجواز والتفنن في العبارة، و(ثق) أمرٌ من الوثوق، وهو الاعتماد، والكُدورة: ضدُّ الصَّفوة، وأما ما في النسخ المضبوطة بالضاد المُعجمة والقاف؛ فتصحيفٌ.

وفي البيت ثلاث طَباقٍ من صنيع البديع؛ يعني: من صفة الدنيا: عدم الصِّفاء، ووجود العناء، وقلة الوفاء، وكثرة الجفاء؛ فإنك إذا تَعَبْتَ في تحصيل جاهها ومالها، وتوجَّهْتَ إلى حُصول نيلها في مالها؛ فبمجرد أنها أقبلت إليك أدبرت عليك، وهو إمَّا حقيقة؛ كما هو مُشاهدٌ في الناس؛ بأنَّ واحداً منهم أصبح في ملكٍ أو مُلكٍ مغروراً بالاستئناس؛ فإذا هو أمسى فقيراً حَكِمَ عليه بالقلَّة والدَّلة والإفلاس، وإمَّا حُكماً؛ فإنه لو عاش ما عاش؛ كفرعون أربع مئة سنة؛ يكون جميع أيام ملكه وتنعمه كمدَّة سنة، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]، وقال تعالى: ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴿٢٠٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴿٢٠٩﴾﴾ [النازعات: ٤٦].

وفي الخبر: «أنَّه يُؤْتَى بأنعم أهل الأرض، فيُغمس في النارِ غَمَسَةً، فيُخرج منها، فيُقَالُ له: هل رأيت في عمرك نعيماً قط؟ فيقول: لا، ويؤتى بأفقر أهل الأرض فيُغمس في أنهار الجنة، فيُخرج منها، فيُقَالُ له: هل رأيت في الدنيا بؤساً قط؟ فيقول: لا»^(١).

بل إذا نظرت بعين اعتبارها؛ هي في عين إقبالها يحق إدبارها؛ لأنها مُشغلة عن مولاها، ومُذهلة عن طاعة مُنعم أعطاها وأولاها فيما يتعلَّق بأخراها وأولاها، وهذا المعنى ظاهرٌ في كون (إذا) لمُجرَّد الظرفية، لا بمعنى (إن) الشرطية؛ فيستفاد منه: أنها

(١) رواه مسلم (٢٨٠٧)، وأحمد (٣/ ٢٠٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

من حينٍ أقبلت أدبرت، ولذا قالت السادة الصوفية والقادة الصفيّة: إنما يدُ العلياء؛ أي: يدُ المعطي خيرٌ من يدِ السفلى، وهي يدُ الآخذ؛ لأنَّ الأول: بسببِ إعطاء شيءٍ ما تقرب إلى المولى، والثاني: بسببِ أخذه شيئاً ما تبعّد عن المقام الأول.

وسببه: أنَّ الدنيا عدوةٌ لله سبحانه وتعالى؛ لأنها في أصلها وسخةٌ جيفةٌ، وثقيلةٌ خفيفةٌ، ألا ترى أنَّ آخرها إلى القدرِ والفسادِ والتلاشي والاضمحلال في نظرِ العباد، لكنّها جيفةٌ ضُمَّخت بتطبيبٍ وتطينٍ، وطُليت بزخرفٍ وتزيينٍ؛ فاعتزَّ بظاهرها الغافلون، وزهدَ فيها العاقلون، وإنّ هي أحسنت إليك صورةً أساءت إليك حقيقةً؛ فإنّها بمنزلة السّم في الدّسم، وبمرتبة النار في الدينار والهم في الدرهم، وإنّ هي أظهرت الصّفاء والوفاء، فاعتمد مَجِيء الكُدورة والجفاء؛ إمّا في الدنيا وإمّا في العقبى، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْرَتَكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

وَلَوْ نِلْتَ مِنْهَا مَالَ قَارُونَ لَمْ تَنْلِ سِوَى لُقْمَةٍ فِي فَيْكَ مِنْهَا وَخَرْقَةٍ
(لَوْ) شرطيةٌ فرضيّةٌ، و(نِلْتَ) بكسر النون؛ مَنْ نَالَ الشيءَ يَنَالُهُ: إذا أصابه، وضميرُ (مِنْهَا) في الموضعين يرجعُ إلى الدنيا، وفي نسخةٍ (منه) بإشباع الهاء؛ فهو عائدٌ إلى المال الذي هو مالُ الدنيا.

ومالُ قارونَ مثْلُ في الكثرة مع بُعد صاحبه عن الحضرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾؛ أي: ابنُ عمِّه، وقيل: عمُّه، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأً للتوراة منه؛ مِنْ كثرة علمه، ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: تكبَّر وتَجَبَّر، ولم يلتفت إليهم بكثرة المال، ودوام الاشتغال حتى زاد في طول ثيابه شبراً زيادةً على سائر الأديال، قال تعالى: ﴿وَأَيُّنَهُ مِنَ الْكُؤُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾؛ أي: مفاتيحُ خزائنه من الغلبة ﴿لَنُؤُوا بِالْعُصْبَةِ﴾؛ أي: لتثقل وتغلب وتميل بجماعة ﴿أُولَى الْقُوَّةِ﴾

وَالشَّجَاعَةِ، قِيلَ: أَرْبَعُونَ، وَقِيلَ: سَبْعُونَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَجَدْتُ فِي الْإِنْجِيلِ: أَنَّ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ قَارُونَ وَقُرُوسَتَيْنِ بَغْلًا، مَا يَزِيدُ مِنْهَا مِفْتَاحٌ عَلَى إصْبَعٍ، لِكُلِّ مِفْتَاحٍ كَنْزٌ، وَكَانَ قَارُونَ أَيْنَ مَا ذَهَبَ يَحْمِلُ مَعَهُ مَفَاتِيحَ كُنُوزِهِ، وَكَانَتْ مِنْ حَدِيدٍ، فَلَمَّا ثَقُلَتْ عَلَيْهِ جُعِلَتْ مِنْ خَشَبٍ، فَثَقُلَتْ، فَجُعِلَتْ مِنْ جُلُودِ الْبَقَرِ عَلَى طُولِ الْإِصْبَعِ؛ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾؛ أَي: بِالدُّنْيَا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] أَي: بِغَيْرِ الْمَوْلَى، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ﴾؛ أَي: بِمَا ذُكِرَ، وَهُوَ الْإِيمَانُ وَالْقُرْآنُ، ﴿فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

﴿وَابْتَغِ﴾؛ أَي: اطْلُبْ ﴿فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾؛ أَي: بِصَرْفِ الْفَانِي لِتَحْصِيلِ الْبَاقِي، ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾؛ أَي: لُقْمَتَكَ وَخِرْقَتَكَ، وَفِي آخِرِ الْأَمْرِ: كَفَنَكَ وَحُفْرَتَكَ ﴿وَأَحْسِنْ﴾؛ أَي: إِلَى نَفْسِكَ، بِإِحْسَانِكَ إِلَى إِخْوَانِكَ ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وَتَفَضَّلَ بِكَرَمِهِ عَلَيْكَ، وَقَصَّتْهُ بِطُولِهَا مَشْهُورَةً، وَفِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ مَسْطُورَةً، وَفِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَعْنَى الْآيَةِ لِمُنَاسَبَةِ الْمَقَامِ كِفَايَةً.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّكَ أَيُّهَا الطَّالِبُ لِلدُّنْيَا الْفَانِيَةِ وَالْمُعْرَضُ عَنْ تَحْصِيلِ الْأُخْرَى الْبَاقِيَةِ لَا يَغْرُكَ كَثْرَةُ الْمَالِ وَالْجَاهِ، وَحَصُولُ السَّعَةِ، وَالتَّنْعُمُ وَالْمَنَالُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَغْرُنَّكَ تَلَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦] أَي: تَصَرُّفُهُمْ فِي تِجَارَاتِهِمْ وَتَقَلُّبُهُمْ فِي زَرَاعَاتِهِمْ، وَتَرْكُ الصَّلَاحِ، وَاخْتِيَارُ الْفَسَادِ ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾؛ أَي: كَمِيَّةً وَكَيْفِيَّةً ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾، وَهِيَ عَذَابُ النَّارِ؛ جِسْمِيَّةً وَرُوحِيَّةً، ﴿وَيَبْسُ الْمُهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧]؛ أَي: سَاءَ مَا مَهَّدُوهُ لَأَنْفُسِهِمْ مِنْ بَيْنِ الْعِبَادِ.

وَأَمَّا اللَّقْمَةُ وَالْخِرْقَةُ فَهُمَا مِنَ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ فَلَا يُعَدَّانِ مِنَ الدُّنْيَا بَلْ مِنَ الْأُمُورِ الْأُخْرَوِيَّةِ؛ فَلَا يَكُونُ الطَّالِبُ مَذْمُومًا فِي تَحْصِيلِهِمَا، بَلْ يَصِيرُ مَلُومًا فِي تَضْيِيعِهِمَا وَتَعْطِيلِهِمَا، وَإِذَا فُرِضَتِ الزِّيَادَةُ فِي الْمَالِ وَصُرِفَتْ فِي مَرْضَاةٍ

المولى وتحسين المال، فليس في جمعه شيء من الوبال، ولذا قيل: الدنيا مزرعة الآخرة؛ إذ بها يُحصّل المنازل الفآخرة، والكنوز الأبدية الزاخرة، وقد قال ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»^(١).

قال بعض العارفين: إنّ الدنيا كالحية؛ فمن عرف رقيتها جاز له صحبتها ورؤيتها، ومن لا فلا. فسئل عن الرقية، فقال: هي أن يعرف من أين يأخذها، وفي أين يصرفها^(٢)، فتأمل بالتأمل الحثيث، يظهر لك معنى الحديث؛ فتجنب المال الخبيث.

وَهَبَكَ بَلَغْتَ الْمُلْكَ فِيهَا أَلَمْ تَكُنْ لِنَزْعِهِ مِنْ فَيْكَ أَيْدِي الْمَنِيَّةِ
في «القاموس»: هَبَنِي فَعَلْتُ؛ أي: احسبني واعُدني؛ كلمة للأمر فقط^(٣)، والواو عاطفة، و(لِنَزْعِهِ) بكسر اللام وفتح العين، واللام للجحود، وهي جارة، ولهذا تُقدَّر بعدها (أَنْ) فإن قيل: إذا صارَ الفعلُ بمعنى المصدرِ بـ (أَنْ) المُقدَّرة، فكيف يصحُّ الحملُ؟ قيل: على حذفٍ مضافٍ من الاسم؛ أي: أما كانت صفتها نزْعُ الملك، أو من الخبر؛ أي: أما كانت ذاتُ نزعة، أو على تأويلِ المصدرِ باسمِ الفاعلِ؛ أي: أما كانت مُنزعةً الملك؛ أي: قد كانت؛ فالاستفهامُ للتقرير، و(فَيْكَ) لغةٌ بمعنى فَمِكَ، و(أَيْدِي) جمعُ اليد، بمعنى الجارحة، و(الْمَنِيَّةِ) بفتح الميم وتشديد الياء؛ وهي: الموت.

شَبَّهَ الشَّيْخُ فِي نَفْسِهِ بِالسَّبْعِ فِي اغْتِيَالِ النَّفُوسِ بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقٍ بَيْنَ نِفَاعٍ وَضَرَارٍ؛ فَأُثْبِتَ لَهَا الْأَيْدِي الَّتِي لَا يَكْمُلُ ذَلِكَ الْاِغْتِيَالُ فِي السَّبْعِ بِدَوْنِهَا؛ تَحْقِيقًا لِلْمُبَالَغَةِ فِي التَّشْبِيهِ؛ فَتَشْبِيهُ الْمَنِيَّةِ بِالسَّبْعِ اسْتِعَارَةٌ بِالْكُنْيَةِ، وَإِثْبَاتُ الْأَيْدِي لَهَا تَخْيِيلِيَّةٌ؛ كَذَا بَيَّنَّهُ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ فِي قَوْلِهِ:

(١) رواه ابن حبان (٣٢١٠)، وأحمد (٤ / ١٩٧) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) ذكره القاري في «مرقاة المفاتيح» (٣٢١٠)، وعزاه للخواجة عبيد الله النقشبندي رحمه الله تعالى.

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص ١٨٣)، (مادة: هب).

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا^(١)

يعني: يا أيُّها الغافلُ عن الحالِ والمالِ! احسُبْ نفسك الباغيةَ للملكِ والمالِ، وعُدَّ ذاتَكَ الطالبةَ للأُماني والآمالِ؛ أنكِ بلغتِ ووصلتِ وحصلتِ مُلكَ العالمِ بكماله في الدنيا، واشتغلتِ به عن طاعةِ المولى والاستعدادِ لدارِ العقبى، وظننتِ أنها تدومُ لكِ بالهنيئةِ والمريّةِ، ألمِ تَكُنْ أيدي المنيّةِ تنزعُهُ من فيكِ الماسكِ بأضراسِهِ ونواجذه الحسيّةِ والمعنويةِ.

وفيه إشارةٌ إلى أن الدنيا لو صَفِيَتْ وبقيت بالفرضِ والتقديرِ؛ أنتِ ما تبقى لها؛ لِمَا كَتَبَ اللهُ عَلَيْكَ الموتَ بحسبِ القضاءِ والتقديرِ.

وفيه إيحاءٌ لطيفٌ إلى أَنَّ حُصولَ الهُلُكِ قد يكونُ قبلَ وُصولِ المُلكِ إلى فَمِكَ وسائرِ بَدَنِكَ من ظاهرِكَ وباطنِكَ؛ بناءً على طُولِ أَمَلِكَ وقُرْبِ أَجَلِكَ.

وفيه إشعارٌ إلى أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ فِي طَلَبِ المُلكِ والمالِ، مُعرضاً عن طاعةِ المَلِكِ المُتَعَالِ؛ يصعبُ عَلَيْكَ سكراتُ الموتِ ومُنكراتُهُ، وتشتدُّ حالاتُهُ وزفرائُهُ وحسراتُهُ، فتكونُ في أيدي ملائكةِ العذابِ كالواقعِ في فَمِ السِّبَاعِ من الدوابِ؛ حيثُ تتشبَّثُ بأظفارِها في كُلِّ موضعٍ من أَعْضاءِ الرَّمِيَّةِ وأوطارِها من العينِ والأذنِ واللسانِ وسائرِ الجوارِحِ والأركانِ التي يتعلَّقُ بكلِّ منها الرُّوحُ والجَنَانُ، فيكونُ نزْعُ رُوحِهِ مُشَبَّهاً بالسَّقُودِ المُشْتَبِكِ بِشَوْكِ السَّعْدَانِ، واللهُ المُسْتَعَانُ.

فَدَعَهَا وَأَهْلِيهَا تَقْضُهُمْ وَخُذْ لِيذَا بِنَفْسِكَ عَنْهَا فَهُوَ كُلُّ غَنِيْمَةٍ

(١) صدر بيت لأبي ذؤيب الهذلي، وتمامه:

أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيْمَةٍ لَا تَنْفَعُ.

انظر: «شرح أشعار الهذليين» (ص ٨)، و«كتاب الصناعتين» (ص ٢٨٤)، و«الإيضاح في علوم البلاغة» (ص ٢٩١).

الفاء تَفْرِيعِيَّةٌ أو فَصِيحِيَّةٌ، ودَعُ: بمعنى اترك، والواو عاطفة، أو بمعنى (مع)، ووقَصَ عُنْفَهُ، كَوَعَدَ: كَسَرَهَا، وفي نسخة: (تَفْتُهُمْ) مِنْ فَاتِهِ يَفُوتُهُ؛ مِنَ الْفُوتِ، و(خُذْ) عَطَفٌ عَلَى (فَدَعْ)، و(بِنَفْسِكَ) متعلِّقٌ به، و(لِذَا) بِاللَّامِ عِلَّةٌ مُعْتَرِضَةٌ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْمَصْدَرِ الْمَفْهُومِ مِنَ الْفِعْلِ الَّذِي قَبْلَهُ، وفي نسخة بالكاف، والظاهر أَنَّهُ تَصْحِيفٌ؛ اَللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ كِنَايَةٌ عَنِ الشَّيْءِ، وَالْكَافُ لِلتَّشْبِيهِ، و(ذَا) لِلْإِشَارَةِ عَلَى مَا فِي «الْقَامُوسِ»^(١)، وَيُرَادُّ بِهِ هُنَا مَجْرَدُ الْكِنَايَةِ عَنِ الشَّيْءِ، وَيُقْصَدُ بِالشَّيْءِ طَرِيقُ الْآخِرَةِ، وَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ، و(عَنْهَا) متعلِّقٌ بِمُقَدَّرٍ؛ أَي: مُعْرَضاً عَنْهَا؛ فَهِيَ تُقْرَأُ بِسُكُونِ الْهَاءِ، وَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى الْخَصْلَةِ الْمَفْهُومَةِ مِنَ السِّيَاقِ؛ وَهِيَ: تَرْكُهَا وَأَهْلِيهَا عَلَيْهَا، وَأَخَذَ النَّفْسَ عَنِ الْمَيْلِ إِلَيْهَا.

والمعنى: إِذَا عَرَفْتَ زَوَالَ الْمَالِ وَهُلُكَ الْمُلْكِ فِي الْمَالِ؛ فَاتْرُكْ مُتَابَعَةَ الدُّنْيَا الْمُشْغَلَةَ الْفَانِيَةَ، وَمُصَاحَبَةَ أَهْلِهَا الْجَانِيَةِ، أَوْ اتْرُكْهَا مَعَ أَهْلِهَا بِالْكُلِّيَّةِ، وَأَقْبَلْ عَلَى الْأُمُورِ الْمَرْضِيَّةِ الْمُورَثَةِ لِلنَّعِيمِ الْمُقِيمِ وَالْمُلْكِ الْعَظِيمِ، وَزِيَادَةَ لِقَاءِ الرَّبِّ الْكَرِيمِ، كَمَا قِيلَ: مَتَى مَا تَلَقَّ مَنْ تَهَوَّى دَعَ الدُّنْيَا وَأَهْلَهَا؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَتْرَكْهَا تَرَكْتُكَ، وَإِنْ تَبِعْتَهَا أَهْلَكْتُكَ؛ إِذْ مِنْ شَأْنِهَا أَنَّهَا تَهْدُمُ بِنْيَانَ أَهْلِهَا؛ مِمَّنْ يَعْمُرُهَا وَلَمْ يَقْبُرْهَا بِعَقْلِهَا، وَتَكْسُرُ رِقَابَهُمْ، وَتُكَثِّرُ عِقَابَهُمْ، وَأَمْسِكْ بِالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ، فِي طَرِيقِ الْمَعَادِ، بِأَخْذِ الزَّادِ؛ لِمَا عَلِمْتَ مِنْ خَرَابِ الدُّنْيَا الدِّيَّةِ، وَهَلَاكِ أَهْلِهَا الْمُتَعَلِّقِينَ بِالْأُمُورِ اللَّهْوِيَّةِ وَالشَّهْوِيَّةِ، وَاخْلُصْ نَفْسَكَ النَّفِيسَةَ عَنْ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا الْخَسِيسَةِ؛ بِتَرْكِ تَحْصِيلِ أَغْرَاضِهَا مِنْ جَوَاهِرِهَا وَأَعْرَاضِهَا.

فهذه الْخَصْلَةُ الْجَامِعَةُ - مِنْ تَرْكِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا الْمَانِعَةِ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ وَرُمُوزِ الْمَحَبَةِ - هِيَ كُلُّ الْغَنِيمَةِ الَّتِي هِيَ مُوجِبَةٌ لِلْمَنَازِلِ الْكَرِيمَةِ، وَإِنَّمَا لَزِمَكَ تَرْكُ الدُّنْيَا

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص ١٧٤١) (مادة: ذا).

بالتجرّد عنها والزّهد فيها؛ لتستقيم لك العبادة، وتحصّل لك كثرة الطاعة؛ فإنّ الرغبة في الدّنيا تُشغلك عن العُقبى، وتمنعك عن خدمة المولى، وتُحبّبك عن المَقام الأعلى ظاهراً وباطناً، أما ظاهرُك؛ فبالطلب والمُجاهدة، وأما باطنُك؛ فبحديث النفس والإرادة والمرادة، حتّى قيل: تَضُرُّ السَّالِكُ المَشَاهِدَةُ.

قال بعض العارفين: لا يُنظرُ إلى الدّنيا وأربابِها، ولا يُقربُ إلى زيتها وأصحابِها؛ فإنّ بريقة أموالهم تُذهبُ بحلاوة إيمان أهل الآخرة وأحوالهم. ويُشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

وسبب ذلك: أن الله سبحانه وتعالى ما جعل لأحد من قلبين في جوفه، والقلب الواحد إذا اشتغل بشيء انقطع عن ضده، والدّنيا والآخرة ضدّان لا يجتمعان، ولذا قيل في حقّهما: إنهما الضّرتان، أو الكفتان، وأمّا ترك أهلها؛ فإنما يلزمك لما قال بعض العارفين: التشنّق بالخلق خير من التعلّق بالخلق^(١)؛ فإن كنت للعقبى راغباً، وللمولى طالباً؛ فدع الخلق جانباً، وسببه: أنهم يشغلونك عن المطلوب ويمنعونك عن المحبوب؛ لأنك في زمان كثير سفهاؤه، وقليل فقهاؤه، ولذا قال الثوري - وهو من أرباب هذا الشأن -: والذي لا إله إلا هو؛ لقد حلّت العزلة في هذا الزمان^(٢).

قال حُجّة الإسلام: ولئن حلّت في زمانه؛ ففي زماننا هذا وجبت^(٣).

وقال الفضيل: هذا زمانٌ أحفظ لسانك، وأخف مكانك، وعالج قلبك وشأنك^(٤).

(١) التشنّق: بُسّ الثياب والتزيّن بالثياب البالية. كما في «المحيط» للصاحب بن عبّاد (١/ ٤٣٨) (مادة: شنق).

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٨٨).

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» (٢/ ٢٣٣).

(٤) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٨٦).

وقيل: هذا زمانُ الشُّكوتِ، ولزومُ البيوتِ، والرِّضا بالقوتِ إلى أن تموتَ^(١).
وقال الشَّاطِبيُّ:

وهذا زمانُ الصَّبْرِ مَنْ لَكَ بالتّي كَقَبْضٍ عَلَى جَمْرِ فِتْنَجَوْ مَنْ الْبَلَا^(٢)
وقال إبراهيمُ بنُ أدهمٍ: كُنْ واحداً جامعياً، وَمِنْ رَبِّكَ ذَا أَنْسٍ، وَمِنْ
النَّاسِ وَحِشِيًّا^(٣).

وقيل: كُنْ وسطاً، وامشِ جانباً.
ومن كلامِ بعضِ العارفين: الصُّوفِيُّ كَابِنٍ بَائِنٍ.
وقيل: هو القريبُ الغريبُ.
وقيل: هو الفرشيُّ العرشيُّ.
ومُجْمَلُ ضَرَرِ الْخَلْقِ شُغْلُهُمْ عَنِ الْحَقِّ.

وأشارَ حاتمُ الأصمُّ إلى بيانِ مُجْمَلِهِ؛ لتعريفِ ضَرَرِ مِفْصَلِهِ، بقوله: طلبتُ
من الخلقِ خمسةَ أشياءَ فلم أجِدْ؛ طلبتُ منهم الطَّاعَةَ والزَّهَادَةَ؛ فلم يفعلوا،
فقلتُ: أعينوني عَلَيْهَا إنْ لَمْ تَفْعَلُوا، فلم يفعلوا، فقلتُ: ارضوا عَنِّي إنْ فَعَلْتُ،
فلم يفعلوا، فقلتُ: لا تَمْنَعُونِي عَنْهَا إِذَا، فَمَنْعُوا، فقلتُ: لا تَدْعُونِي إِلَى طَلَبِ
الدُّنْيَا، وَلَا إِلَى مَا لَا يُرْضِي الْمَوْلَى، وَلَا تُعَادُونِي عَلَيْهَا إنْ لَمْ أَتَّابِعْكُمْ، فلم
يقبلوا؛ فتركتُهم واشتغلتُ بِخَاصَّةِ نَفْسِي.

وَزُبْدَةُ الْكَلَامِ فِي تَحْصِيلِ الْمَرَامِ: أَنَّ كُلَّ مَا شَغَلَكَ عَنِ الْمَوْلَى مِنَ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العزلة» (٩٧) من قول سفيان الثوري.

(٢) انظر: «حزر الأمانى ووجه التهاني» (ص ٢٤).

(٣) انظر: «فيض القدير» (٤ / ٤١).

من أهلٍ وولِدٍ، وصاحبٍ وطالبٍ، وفقرٍ وغنىٍّ، وجوعٍ وشبعٍ، وشهرةٍ وخمولٍ، وعلمٍ وعملٍ، ونظرٍ وخطرٍ؛ فهو ضررٌ إليك وشوْمٌ عليك.

وَلَا تَغْتَبِطْ فِيهَا بِفَرَحَةٍ سَاعَةٍ تَعُودُ بِأَحْزَانٍ عَلَيْكَ طَوِيلَةٍ
الْغَبْطَةُ بالكسر: حُسْنُ الْحَالِ وَالْمَسْرَّةُ، وَقَدْ اغْتَبِطَ؛ أَي: صَارَ مَغْبُوطًا، وَالْحَسْدُ
كَالْغَبْطَةِ، وَقَدْ غَبَطَهُ؛ كَضَرْبِهِ وَسَمِعَهُ: تَمَنَّى نِعْمَةً عَلَى أَنْ لَا تَتَحَوَّلَ عَنْ صَاحِبِهَا، وَفِي
الْحَدِيثِ: «اللَّهُمَّ غَبْطًا لَا هَبْطًا»^(١)؛ أَي: نَسَأْلُكَ الْغَبْطَةَ؛ أَي: مَنْزِلَةَ نُغْبِطُ عَلَيْهَا.

وَالْفَرَحَةُ بِالضَّمِّ: الْمَسْرَّةُ، وَيُفْتَحُ، وَمَا يُعْطِيهِ الْمُفْرَحُ لَكَ؛ الْكُلُّ مِنْ
«الْقَامُوس»^(٢)، وَضَمِيرُ (فِيهَا) إِلَى الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؛ فَالْبَاءُ لِلْسَّبَبِيَّةِ، وَفِي نَسْخَةٍ
(مِنْهَا) بَدَل (فِيهَا)؛ أَي: لَا تَقْنَعْ مِنْهَا؛ فَالْبَاءُ لِلْبَدَلِيَّةِ، وَضَمِيرُ (تَعُودُ) بِمَعْنَى
تَنْقَلِبُ وَتَرْجِعُ، تَعُودُ إِلَى (فَرَحَةٍ)، وَ(عَلَيْكَ) صِفَةٌ لـ (أَحْزَانٍ) بِتَقْدِيرِ: كَائِنَةٌ،
وَالْتَنْوِينُ لِلتَّكْثِيرِ، وَ(طَوِيلَةٍ) صِفَةٌ ثَانِيَةٌ، وَبَيْنَ الْفَرَحِ وَالْحُزَنِ صَنْعَةُ طِبَاقٍ مِنْ
الْبَدِيعِ، وَالْوَاوُ فِي صَدْرِ الْبَيْتِ لِلْعَطْفِ عَلَى الْأَمْرِ السَّابِقِ.

وَالْمَعْنَى: لَا تَفْرَحْ فَرَحَ الْبَطْرِ وَالْمَرَحِ، وَلَا تُظْهِرِ السُّرُورَ بِأَسْبَابِ الْفَرَحِ، وَلَا
تَظُنَّ أَنَّكَ مَغْبُوطٌ بِمَا أُعْطِيتَ، أَوْ مُحْسُودٌ بِمَا أُوتِيتَ فِي الدُّنْيَا الَّتِي هِيَ كَسَاعَةٍ بِجَنْبِ
السَّاعَةِ، بِسَبَبِ حُصُولِ مَسْرَّةٍ وَوَصُولِ مَبْرَّةٍ فِي مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ تَنْقَلِبُ تِلْكَ الْفَرَحَةُ بِأَحْزَانٍ
كَثِيرَةٍ كَائِنَةٌ عَلَيْكَ مُضَرَّتْهَا فِي بُرْهَةٍ طَوِيلَةٍ، تَرْجِعُ إِلَيْكَ حَسْرَتُهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْفَرَحِينَ بِغَيْرِ طَاعَتِهِ، بَلْ يُحِبُّ كُلَّ قَلْبٍ حَزِينٍ فِي تَحْصِيلِ عِبَادَتِهِ، بَلْ كُنْ مُغْتَبِطًا
بِالسَّاعَةِ الَّتِي تَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا، وَتَتْرُكُ مَا يَشْغَلُكَ عَنِ الطَّاعَةِ وَيُنَافِيهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فِي ذَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يُونُس: ٥٨]؛ لِأَنَّ مَا يَكُونُ مَالَهُ إِلَى الزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ لَا
يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ خَيْرٌ وَصَلَاحٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَالِهِ الْكَمَالِ وَالْبَقَاءِ.

(١) أوردته ابن سلام في «غريب الحديث» (٤ / ٤٩٧)، وابن الجوزي في «غريبه» (٢ / ١٤٥).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص ٢٩٨)، (مادة: فرح).

والحاصل: أَنَّ الدُّنْيَا كَالسَّاعَةِ؛ فَاجْعَلْ أَعْمَالَكَ كُلَّهَا فِيهَا طَاعَةً، لِتَتَخَلَّصَ مِنَ
النَّدَامَةِ وَالْمَلَامَةِ فِي يَوْمِ الْحُسْرَةِ، وَسَاعَةِ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ وَرَدَ: لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ وَلَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهَا^(١)، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا أُقْسِمُ
بِیَوْمِ الْقِيَمَةِ ۝ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝﴾ [القيامة: ١ - ٢]، قِيلَ: الْمُرَادُ بِالنَّفْسِ الْجِنْسُ؛ لِمَا
رُوي: أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ بَرَّةٍ وَلَا فَاجِرَةٍ إِلَّا وَتَلَوُْمُ نَفْسِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ إِنْ
عَمِلْتَ خَيْرًا؛ قَالَتْ: كَيْفَ لَمْ أَزِدْ، وَإِنْ عَمِلْتَ شَرًّا؛ قَالَتْ: لَيْتَنِي كُنْتُ قَصَّرْتُ»^(٢).

وزبدة الكلام وعمدة المرام: أَنَّ الزَّمَنَ الْيَسِيرَ فِي الدُّنْيَا يَنْبَغِي أَنْ يُصْرَفَ
فِي تَحْصِيلِ الْمُلْكِ الْكَبِيرِ فِي الْعُقْبَى، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُلْهَوْ وَيُلْعَبَ وَيَشْتَغَلَ بِالْفَرَحِ
الْفَانِي غَافِلًا عَنِ الْكُرْبِ، أَوِ الْفَرَحِ الْبَاقِي؛ فَإِنَّهُ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ؛ كَمَا
وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ^(٣)، وَمَفْهُومُهُ: أَنَّهُ لَا مَشَقَّةَ إِلَّا مَشَقَّةُ الْآخِرَةِ، وَجَاءَ فِي الْكَلَامِ
الْقَدِيمِ: ﴿وَمَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتْنَعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وَمَفْهُومُهُ: أَنَّ الْحَيَاةَ
الْعُقْبَى هِيَ الَّتِي فِي الْحَقِيقَةِ مَتَاعُ الْحُضُورِ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي آيَةٍ أُخْرَى مِنْ
الْقُرْآنِ: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وَنَصَّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ،
وَقَالَ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، وَقَيَّدَهُ فِي مَحَلٍّ آخَرَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَعَيْشُكَ فِيهَا أَلْفَ عَامٍ وَيَنْقَضِي كَعَيْشِكَ فِيهَا بَعْضَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
الْفَاءُ تَفْرِيعِيَّةٌ، أَوْ فَصِيحَةٌ، وَ(عَيْشُكَ) مُبْتَدَأٌ، وَ(فِيهَا) مُتَعَلِّقٌ بِهِ، وَالضَّمِيرُ لِلدُّنْيَا،

(١) تقدم تخريجه في البيت الأول.

(٢) أورده الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٠ / ٨٢)، والواحدي في «الوسيط» (٤ / ٣٩٠)، والبغوي
في «معالم التنزيل» (٥ / ١٨٢) من قول الفراء.

(٣) رواه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٨٠٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

و(ألف عام) منصوبٌ على الظرفية، و(يُنْقَضِي) جملةٌ حاليةٌ، والضميرُ إلى الألفِ، والخبرُ (كعَيْشِكَ)، و(بعض) ظرفٌ أيضاً.

والمعنى: لَمَّا كَانَ فرحُ الدُّنْيَا - ولو طَالَ المدى - كَفَرَحِ ساعةٍ بجنبِ طولِ يومِ القيامةِ، أو مدةِ أيامِ الآخرةِ؛ فتعْيُشَكَ وتَصْرُفَكَ في الدُّنْيَا ولو كَانَ ألفَ عامٍ، الذي هُوَ مَثَلٌ في طولِ المَقَامِ والحَالِ أَنَّ آخرَهُ يَنْقَضِي، وإلى الفناءِ والزوالِ ينتهي، يكونُ كبقائك ودوامِ حالكِ في الدُّنْيَا القليلةِ مُقَدَّرًا تَوَقُّفُ بعضِ يومٍ أو بعضِ ليلةٍ، والبعضُ يَصْدُقُ عليه أنه مقدارُ ساعةٍ ولحظةٍ ولمحةٍ؛ إشارةً إلى قوله تعالى في إطالةِ مُدَّةِ العذابِ على الفُجَّارِ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وفيه إيحاءٌ إلى أن طولَ العُمُرِ في غيرِ مرضاتِهِ تعالى وبإلٍ على المُعَمَّرِ؛ لأنَّهُ به يَزِيدُ تحصيلُ الشرِّ على الشرِّ؛ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطِلُّ لَهُمْ حَيًّا لَّا أَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطِلُّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ومع هذا لَا يُغْنِيهِ الإِمْلاءُ والإِمْهَالُ عن العذابِ والأَغْلَالِ والأنكَالِ، بل سببٌ لزيادةِ حُصولِ الوَبَالِ ووصولِ النِّكَالِ؛ قَالَ تعالى: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَجْرَضَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

فطُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحُسُنَ عَمَلُهُ، وَوَيْلٌ لِمَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ، ولهذا وَرَدَ في الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِّي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِّي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً إِلَيَّ فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِّي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»^(١). وفي حديثٍ آخرَ: «الموتُ تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ، وَأَسْفُ الْفَاجِرِ»^(٢).

(١) رواه البخاري (٥٣٤٧)، ومسلم (٢٦٨٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٧٨١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢٠٠٥) من حديث

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فاغتنم بعض عمرك، وخُذ من صحتك لمرضك، ومن قوتك لضعفك، ومن غناك لفقرك، ومن حياتك لموتك، واعلم أن الدنيا معبرٌ وممرٌ، وليست هي دار ثباتٍ ومقرٌّ، كما ورد في الحديث: «الدنيا دارٌ من لا دارَ له، ومالٌ من لا مالَ له، ويجمعها من لا عقلَ له»^(١).

عَلَيْكَ بِمَا يُجْدِي عَلَيْكَ مِنَ التَّقَى فَإِنَّكَ فِي لَهْوٍ عَظِيمٍ وَغَفْلَةٍ (عَلَيْكَ) اسمٌ فعلٌ بمعنى الزم وخُذ، والباءُ للتعديّة، و(ما) موصولةٌ، أو موصوفةٌ، و(يُجْدِي) بضمّ الياء، وكسرِ الدالِ بمعنى (ينفع) و(يغني)، و(عَلَيْكَ) جازٌ ومجروراً متعلّقٌ به، وبينَ (عَلَيْكَ) الأول والثاني جناسٌ تامٌّ، و(من التَّقَى) بضمّ التاء المُبدلة من الواو؛ بيانٌ لـ (ما)، وتنوينُ (غَفْلَةٍ) للتعظيم.

والمعنى: الزم طريقة الأنبياء والمرسلين، واسلك سبيل الأولياء والمؤمنين بالتزام ما يعفيك في الدنيا وينفعك في العقبى؛ بملازمة مراتب التقوى من الشُّرك الجَلِيِّ والخَفِيِّ، ومواظبة المأمورات، ومُجانبة المحظورات، ومعالجة النفس بالتخلّي عن الأخلاق الدنيّة، والتخلّي بالأوصاف الرّضيّة، والتخلّي بتخلّق الصفات الرّبوبية؛ قال الشّاطبي:

عَلَيْكَ بِهَا مَا عِشْتَ فِيهَا مُنَافِسًا وَبِعَ نَفْسَكَ الدُّنْيَا بِأَنْفَاسِهَا الْعُلَا^(٢) واستيقظ من سِنَةِ النومِ إلى سِنَةِ اليقظة، ومن ضيقِ القلبِ إلى شرحِ الصدرِ والسَّعة، وانتقل من سِنَنِ اللّهُو عن المَالِ والتكاثرِ بِالمَالِ إلى سِنَنِ أربابِ الكمالِ وأصحابِ الجمالِ؛ لتتخلَّصَ من عذابِ الحجابِ، وعقابِ النِّكَالِ، وتدخلَ دارَ الوصالِ، وتأمّنَ النقصَ والزوالَ؛ فَإِنَّكَ فِي لَهْوٍ عَظِيمٍ مما يظهرُ من أفعالِكَ، وغفلةٍ عظيمةٍ مما تبينَ من أحوالِكَ.

(١) رواه أحمد (٦/ ٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها، ورجاله ثقات.

(٢) انظر: «حز الأمانى ووجه التهاني» (ص ١٧).

مَجَالِسُ دِكْرِ اللَّهِ تَنْهَاكَ أَنْ تُرَى هَا ذَاكَرًا لِلَّهِ ضِعْفَ الْعَقِيدَةِ
(مجالس) جمع مجالس، وهو موضع الجلوس، مُضافٌ إلى (ذكر الله)،
والإضافة بمعنى (في) أي: مجالس فيها ذكر الله من باب إضافة المصدر إلى مفعوله؛
أي: ذكر الناس الله، وهو مبتدأ، خبره (تنهاك) بئاء التأنيث، وضميره المستتر رابطٌ عائِدٌ
إلى المبتدأ، و(أن) بتقدير: مَنْ أَنْ تُرَى، بصيغة المجهول المُخاطَب، بمعنى: تُبصر،
وضميرُ (بها) إلى المجالس، والباء بمعنى (في)، و(ذاكرًا) منصوبٌ على الحالية،
و(الله) متعلّقٌ به، أو بمعنى لأجله، و(ضِعْفَ الْعَقِيدَةِ) منصوبٌ على العلة، وفي نسخة
برفعه على أنه فاعلٌ لـ (تنهاك) على أنه بصيغة التذكير، وهو الأظهر؛ فعليه الاعتمادُ،
والعقيدة: ما عقدَ عليه القلبُ من الاعتقاد. والنهيُّ على التقديرين مجازيُّ الإسناد.

والمعنى: إنك في لَهْوٍ عَظِيمٍ واشتغالٍ جسيمٍ في الدنيا عما يُجدي عليك في
العُقبى من مُلازمةِ التقوى؛ بحيثُ مجالسُ ذكرِ الله من المساجدِ والمعابدِ التي هي
أماكنُ كُلِّ سالِكٍ وعابِدٍ وزاهدٍ، خاليةٌ عن حُضوركَ ووجودِكَ، وفارغةٌ عن رُكُوعِكَ
وسُجُودِكَ؛ فكأنها لبُعْدِكَ عنها، وتنفُركَ منها تنهاك أن تدخلها ليراك الناسُ بها حالَ
كونِكَ ذاكرًا لله فيها، وما ذاك إلا لضعفِ اعتقادِكَ وعدمِ الاستعدادِ لزيادةِ معادِكَ، مع أنه
قد وردَ في الحديثِ الشريفِ عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا مررتُم برياضِ الجنةِ
فارتعوا» قلتُ: وما رياضُ الجنةِ؟ قال: «المساجدُ» - وفي رواية: «حِلَقُ الذِّكْرِ» - قلتُ:
وما الرِّتْعُ يا رسولَ الله؟ قال: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلا الله، واللهُ أكبرُ^(١).

وفي حديثٍ آخر: «إنَّ مجالسَ الذِّكْرِ تتباهى بها الملائكةُ»^(٢).

(١) رواه الترمذي (٣٥١٠)، وأحمد (٣/ ١٥٠)، وأبو يعلى (٣٤٣٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. ورواية (المساجد) رواها الترمذي (٣٢٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٢٦٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وفي حديث مسلم: «لا يقعد قومٌ يذكرون الله تعالى إلا حَفَّتْهُمُ الملائكةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، ونَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وذكرهم اللهُ فيمن عنده»، وجاء في رواية: «يقولُ للملائكة: اشهدوا أنَّي قد غفرتُ لهم، فيقول ملكٌ من الملائكة: إِنَّ فلاناً جاءَ لحاجةٍ وليسَ منهم؟! قالَ اللهُ تعالى: هُمُ القومُ لا يشقى بهم جليسُهُم»^(١).

وفي حديث: «أكثرُوا ذكرَ اللهِ حتى يقولُوا: معجونٌ»^(٢).

وفي حديث: «ما جلسَ قومٌ مجلساً لم يذكروا اللهَ فيه، ولم يُصلُّوا على نبيِّهم إلا كانَ عليهم تِرةٌ؛ أي: تَبَعَةٌ وَحَسْرَةٌ؛ فإن شاءَ عَذَّبَهُم، وإن شاءَ غَفَرَ لَهُم»^(٣).

ومن اللطائف: أن عبداً دخلَ مسجداً بإذنِ مالكه أن يُصَلِّي، وأبطأ فيه، فنادهُ سيِّدهُ، فقال: يمنعني أن أخرجَ، فقال: مَنْ يمنعُكَ مِنَ الخُروجِ، فقال: الذي يمنعُكَ مِنَ الدُّخولِ.

وقد قال الصَّدِيقُ الأَكْبَرُ: ليتني كنتُ أُخْرَسَ إلا عن ذكرِ اللهِ.

والمقصودُ من جميع الطاعاتِ والعباداتِ إنما هو ذكرُ اللهِ تعالى، قالَ تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وقالَ سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقالَ تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ أي: لذكرُ اللهِ إياكم أكبرُ من ذكركم إياه.

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٦٨)، وأبو يعلى في «المسند» (١٣٧٦)، والحاكم في

«المستدرک» (١٨٣٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وإسناده ضعيف.

(٣) رواه الترمذي (٣٣٨٠)، والحاكم في «المستدرک» (٢٠١٧)، وابن حبان (٨٥٣) من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الحديث القدسي: «أنا جليسُ مَنْ ذكرني، وأنا معه إذا تحركت بي شفتاه»^(١)، وفي حديث آخر: «فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه»^(٢).

إِذَا شَرَعُوا فِيهَا تَحْتَحَثَ قَائِمًا قِيَامُكَ هَذَا قُلْ إِلَى أَيِّ لَعْنَةٍ (إذا) ظرفية عاملها، (تَحْتَحَثَ) بمعنى: أسرع، وضمير (فيها) راجع إلى مجالس الذكر؛ أي: في إقامتها والشروع في كلماتها، أو إلى الأذكار؛ بإطلاق المحل وإرادة الحال، أو على طريق الاستخدام، و(قَائِمًا) حال من الفاعل، و(قِيَامُكَ) مبتدأ، و(هَذَا) بدل منه؛ إشارة إلى القيام المذموم والفعل المعلوم، والخبر (إِلَى أَيِّ لَعْنَةٍ)، و(قُلْ) جملةٌ مُعْتَرِضَةٌ، ويمكن أن يكون الأمر خبراً بتأويل: يُقَالُ فيه، والمقول (قِيَامُكَ إِلَى أَيِّ لَعْنَةٍ) على تقدير مبتدأ.

والمعنى: إذا شرعَ الذاكرون والزاهدون، وابتدأ العابدون والحامدون في ذكره وشكره، وما يتعلق بنهيه وأمره تعالى، وقيل لك بلسانِ القال، أو ببيان الحال: تعال إلى ما به حصولُ الدَّرَجَاتِ العُلى والوصولُ إلى الرفيقِ الأعلى، والحضورُ بين يدي المولى، أسرعَ بالإعراضِ وأوجبَ على نفسك الاعتراضَ بأنك طالبُ الجواهر والأعراضِ، وعبوديتك إنما هي للأعراضِ والأغراضِ حال كونك قائماً في مقام الهوى ومائلاً عن طريق الهدى.

قُلْ لِي أَيُّهَا الْعَاطِلُ الْغَافِلُ عَمَّا يَنْفَعُكَ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ: قِيَامُكَ هَذَا عَنِ الذِّكْرِ ومجالسه التي هي محلُّ تنزلاتِ الرحمةِ إلى أيِّ لعنةٍ وبُعدٍ وطردٍ من مُوجِبَاتِ اللعنةِ

(١) رواه البخاري (٢٧٣٦ / ٦) تعليقاً، وابن ماجه (٣٧٩٢)، وأحمد (٥٤٠ / ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حيثُ تشبَّهَتْ بهذا الفعلِ الشَّنِيعِ والصُّنْعِ الفُطِيعِ للكافرينَ الفُجَّارِ، وخرجتَ عن التشبُّهِ بالمُوحِّدينَ الأبرارِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وهذا أمرٌ مُشَاهِدٌ في هذا الزمانِ حالَ مُجالسةِ الإخوانِ؛ فإنَّكَ ما دُمْتَ معهم في كلامِ الدُّنيا وما يتبعُها من مقدِّماتِ الهوى بل في غِيبةِ العلماءِ وأكلِ لحومِ الصُّلحاءِ؛ فهم في غايةٍ من البَسْطِ معكَ في الكلامِ، ونهايةِ الانبساطِ في تمامِ المَرامِ وقيامِ النِّظامِ، وإذا شرعتَ في تفسيرِ آيةٍ من كلامِهِ القديمِ، أو في تعبيرِ حديثٍ من أخبارِ رسولهِ الكريمِ، أو في أخبارٍ من أخبارِ أوليائِهِ، وما يتعلَّقُ بأخلاقِ أَصْفِيائِهِ - على ما قِيلَ: إِنَّهُ عِنْدَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ تَنْزِلُ الرَّحْمَةُ، وَتَحْصُلُ السَّكِينَةُ - ضَاقَ عَلَيْهِمُ الْمَجَالِسُ بِسَعَتِهَا، وانقلبتْ حلاوةُ كلامِهِم بِمرارتِها، وقاموا بالقلبِ مُعْرِضاً عن سماعِ كلامِكَ، بل مُعْتَرِضاً في الباطنِ على مرامِكَ، ويعدُّونكَ ثَقِيلاً ومُرائياً وعويلاً، وهذا لأنَّ كُلَّ حِزْبٍ بما لديهم فرحونَ، وعمَّا خُلِقُوا لأجلِهِ غافلونَ، وبهذا المعنى أشارَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ:

وَلَوْ كَانَ لَغَوَاً أَوْ أَحَادِيثَ رِيَّةٍ وَثَبَّتَ وَثُوبَ اللَّيْثِ نَحْوَ الْفَرِيسَةِ

اسم (كَانَ) إلى المجلسِ الدالِّ عليه (المجالس)، أو إلى الكلامِ الدالِّ عليه الذِّكْرُ، و(أَوْ) للتنويعِ، أو بمعنى (بل)، والرِّيَّةُ بالكسرِ: الشَّكُّ والشُّبْهَةُ، و(وَثَبَّتَ) بالخطابِ جوابُ (لو) من الوُثُوبِ، وهو القيامُ بالسُّرْعَةِ، ونصبَ (وُثُوبَ اللَّيْثِ) على أنه مفعولٌ مطلقٌ، ونصبَ (نَحْوَ الْفَرِيسَةِ) على أنه ظرفٌ للوُثُوبِ، وهي فعيلةٌ بمعنى المفعولِ؛ ففي «القاموس»: الْفَرَّاسُ: الْأَسَدُ، وَفَرَسَ فَرِيسَتَهُ: دَقَّ عُنُقَهَا، وَالْفَرِيسُ: الْقَتِيلُ^(١).

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص ٧٢٥)، (مادة: فرس).

يعني: هذا حالهم في مجالس الذكر ومألهم، ولو كان المجلس مجلس لهو، أو الكلام كلام لغو، وهو ما لا يعينك في الدنيا ولا ينفعك في العقبى، بل ولو كان أحاديث ريبة من كذب وبُهتانٍ وغيبةٍ، قُمتَ إليه بجملتك، وأقبلت عليه بكليتك مثل وثوب الأسد إلى جانب مصيدِه، ومثل قيام الكلب إلى أخذ عظمه الذي غاية قصده؛ غافلاً عما قال تعالى في المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، وعمّا ورد في كلام نبيه ﷺ: «إِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(١).

وهذا الحال وما يترتب عليه المقال أوجب عزلة أهل الكمال عن مجالسة الناس؛ فإن الاستئناس بالناس من علامة الإفلاس، ومن اختار العزلة اختار العزلة، لكن قال بعض العرفاء ومال إلى سبيل الظرفاء: العزلة بدون عين العلم زلة، وبغير زاي الزهد علة؛ فعليك بما قاله الشيخ حجة الإسلام:

اتخذ الله صاحباً ودع الناس جانباً
وصن الودَّ شاهداً كنت فيه وغائباً
قلب الناس كيف شئت ست تجدهم عقارباً^(٢)

ثم آفات الخلطة كثيرة، كما هي معروفة شهيرة، ومن جملةتها الحسد حتى من العلماء والفقهاء، فضلاً عن السفهاء والجهلاء، ولهذا المعنى قال سفيان الثوري: ما أخاف على دمي إلا من القراء والعلماء، فاستنكروا ذلك منه، فقال: ما أنا قُلتُهُ إنما قاله إبراهيم النخعي^(٣). وهو أستاذ أبي حنيفة الكوفي رحمة الله عليه الباري.

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الأبيات نسبها الخطابي في «العزلة» (ص ١٧) لابن المبارك، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦ / ٣٤٥). وانظر: «إحياء علوم الدين» (٢ / ٢٢٢).

(٣) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٢٨٨١)، والمستنكر هو محمد بن المبارك، الراوي عن سفيان الثوري.

وعن عطاء قال: قال لي الثوري: احذروا القراء واحذروني معهم، فلو خالفت أودهم لي في رمانة؛ فأقول: إنها حلوة، ويقول: إنها حامضة، ما أمتته أن يسعى بدمي إلى سلطانٍ جائر. انتهى^(١).

وقد وقعت لي واقعة قريبة من هذا المعنى، وهي أنه كان لي صاحب متفق معي في المعنى، ومشارك معي أربعين سنة في علم التفسير والحديث والفقه والتصوف وعلم النحو والمبنى، وما كنت أشك أنه من أوليائه الكمل وأصفيائه إلى أن وقع لي اعتراض على عالم من علماء مذهبه؛ فبحث معي وتحرك معه عرق تعصبه، وترك وفاء عهده، وصفاء مشربه، وقابلني قبالة الشريفة والكعبة المنيقة بقوله: إنك تشتم العلماء، وتسب الفضلاء؛ وهذا والله العظيم محض الافتراء، ونطق به على طريق الجهر والنداء؛ بحيث إنه لو سمع بعض السفهاء على صورة الفقهاء هذا الكلام عنه، ونقل هذا النقل منه؛ لسعوا بي إلى الهلاك، لكن عصمني الذي بتصرفه الأملاك والأفلاك.

تُصَلِّي بِلا قَلْبٍ صَلَاةً بِمِثْلِهَا يَكُونُ الْفَتَى مُسْتَوْجِبًا لِلْعُقُوبَةِ

قوله: (تُصَلِّي) يحتمل أن يكون خبراً، ويحتمل أن تكون همزة الاستفهام للإنكار؛ مقدراً في أولها، و(صَلَاةً) يحتمل أن يكون مفعولاً به، وأن يكون مفعولاً مطلقاً، والجملة بعدها صفة لها، والباء في (بِمِثْلِهَا) للسببية متعلقة بـ (يَكُونُ).

والمعنى: أتُصَلِّي بلا حضور قلب، بل بمجرد قالب صلاة غير صحيحة للتقصير في بعض شرائطها وأركانها أو للرياء في السُّمعة في تطويلها وإحسانها؛ يكون الشخص بمثل تلك الصلاة مستحقاً للعقوبة، ومحروماً عن المثوبة مع أنه تعالى إنما يتقبل العبادات من المتقين، والتقوى على حقيقتها عزيمة عند المحققين، ولذا قالت رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير.

(١) انظر: «فيض القدير» (٦/ ١٤٣).

ولعلَّهُ ﷺ كَانَ إِذَا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا^(١)؛ إظهاراً للعبودية، وتقصيراً في القيام بحقِّ الربوبية.

قَالَ الْغَزَالِيُّ: سَمِعْتُ الْأُسْتَاذَ أَبَا الْحَسَنِ يَحْكِي عَنْ أُسْتَاذِهِ أَبِي الْفَضْلِ: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ مَا أَعْمَلُهُ مِنَ الطَّاعَاتِ غَيْرُ مَقْبُولٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَأَجَابَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْفِعْلُ حَتَّى يَكُونَ مَقْبُولاً، وَاعْلَمْ أَنِّي لَسْتُ أَقُومُ بِذَلِكَ فَعَلِمْتُ أَنَّهَا غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، قِيلَ لَهُ: فَلِمَ تَفْعَلُهَا؟ قَالَ: عَسَى اللَّهُ أَنْ يُصَلِّحَنِي يَوْمًا فَتَكُونَ النَّفْسُ مَتَّعُودَةً لِعَمَلِ الْخَيْرِ؛ فَلَا أَحْتَاجُ أَنْ أُعَوِّدَهَا ذَلِكَ مِنَ الرَّأْسِ. انْتَهَى.

وَلِذَا قَالَ ﷺ: «أَنَا أَتَقَاكُمُ اللَّهُ وَأَخُوفُكُمْ»^(٢)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

تَظَلُّ وَقَدْ أَتَمَمْتَهَا غَيْرَ عَالِمٍ تَزِيدُ اخْتِيَاطاً رُكْعَةً بَعْدَ رُكْعَةٍ

جملة (وَقَدْ أَتَمَمْتَهَا) حَالٌ مِنَ الْمُخَاطَبِ، (غَيْرَ عَالِمٍ) حَالٌ آخَرٌ مُتْرَادِفٌ أَوْ مُتَدَاخِلٌ، وَكَذَا جَمْلَةُ (تَزِيدُ)، أَوْ هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُبَيَّنٌّ، أَوْ فِي مَعْنَى الْعِلَّةِ، (اخْتِيَاطاً) مَفْعُولٌ لَهُ، وَ(رُكْعَةً) مَفْعُولٌ بِهِ، وَ(بَعْدَ رُكْعَةٍ) صِفَةٌ؛ أَي: كَائِنَةُ بَعْدَ رُكْعَةٍ، أَوْ ظَرْفٌ لـ (تَزِيدُ).

وَالْمَعْنَى: أَنَّكَ تَدُومُ نَهَارَكَ عَلَى صَلَاتِكَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِكَ، وَالْحَالُ أَنَّكَ قَدْ أَتَمَمْتَهَا صُورَةً عَلَى زَعْمِكَ حَالُ كَوْنِكَ مِنْ كَمَالِ نُقْصَانِكَ غَيْرَ عَالِمٍ بِتَمَامِ رُكْنِكَ؛ تَزِيدُ بِحُكْمِ الْوَسْوسَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ وَالْهَوَى النَّفْسَانِيَّةِ؛ لِلْإِخْتِيَاطِ عَلَى حُكْمِ عَجَبِكَ وَتَوَهُّمِ غُرُورِكَ رُكْعَةً بَعْدَ رُكْعَةٍ؛ بِنَاءً عَلَى وَسْوسَةٍ بَعْدَ وَسْوسَةٍ، وَشُبْهَةٍ بَعْدَ شُبْهَةٍ، وَهَذَا كُلُّهُ نَشَأٌ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَعَدَمِ الْحُضُورِ فِي الْعِبَادَةِ.

(١) رواه أبو داود (١٥١٣)، وابن ماجه (٩٢٨)، وابن حبان (٢٠٠٣)، وابن خزيمة (٧٣٧) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١١٠٨)، وأبو عوانة (٢٨٨٠) من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه، ولفظه: «أما والله؛ إني لأتقاكم الله وأخشاكم له».

وإذا كانت الصَّلَاةُ التي هي أَسُّ الطاعاتِ وأُمُّ المأموراتِ، التي تنهى عن السيئاتِ حالها معك على هذا المِنوالِ؛ فكيف سائرُ الأقوالِ والأفعالِ والأحوالِ.

فَوَيْلَكَ تَذْرِي مَنْ تُنَاجِيهِ مُعْرِضاً وَبَيْنَ يَدَيَّ مَنْ تَنْحَنِي غَيْرَ مُخْبِتٍ
الفاءُ تفرعيةٌ، والويلُ بمعنى الهلاكِ، والإضافةُ بمعنى اللامِ، ونصبه على المصدرية، و(تَذْرِي) بتقديرِ همزة الاستفهامِ الإنكاريِّ، ويُؤيده ما في نسخة (فويلُ أَتَذْرِي)، و(مَنْ) موصولةٌ معلقةٌ، صلته (تُنَاجِيهِ)، والضميرُ لله، و(مُعْرِضاً) حالٌ من الفاعلِ، و(بَيْنَ يَدَيَّ مَنْ) ظرفٌ مضافٌ إلى الموصولِ، صلته (تَنْحَنِي) عطفاً على (مَنْ تُنَاجِيهِ)، و(غَيْرَ مُخْبِتٍ) حالٌ من فاعلِ (تَنْحَنِي).

أي: فالهلاكُ لك حاصلٌ، والعذابُ بك واصلٌ من غفلتك في طاعتك، ومن قلةِ عنايتك واهتمامك في عبادتك؛ أتعلمُ مَنْ تُقابله في استقبالِكَ وَمَنْ تُواجهه في حالِ خيالكِ، وَمَنْ تُخاطبه عندَ خطابِكَ في سؤالِكَ؛ فإن الصلاةَ معراجَ المؤمنِ ومدرَجُ الموقِنِ، ومعَ هذا ما لك مُعرضٌ عنه بظاهركِ، ومُلتفتٌ عنه بخاطركِ، فتنوي نيةً غيرَ خالصةٍ من الرياءِ والسُّمعةِ، وتقولُ: اللهُ أكبرُ، وتوجُّهك إلى غيره أكثرُ، وتقرأُ قراءةً غيرَ صحيحةٍ لفظاً ومعنى وقصداً لمفاسدَ صريحةٍ؛ فمتى قرأتَ جهراً بمحضرِ الخلقِ راعيتَ مخارجَ الحلقِ وتعديتَ عن حدودِ المداتِ بالتمطيطاتِ، وراعتَ الوقوفَ والترتيلَ والكيفياتِ، ومتى قرأتَ وحدكَ حدرتَ وهذرتَ، وكسرتَ الحروفَ والكلماتِ.

وعلى هذا القياسِ جميعُ أدائكِ في ركوعك وسجودك وقعودك وخشوعك، وهذا معنى قوله: (وَبَيْنَ يَدَيَّ مَنْ تَنْحَنِي) أي: في حالِ الرُّكوعِ والسجودِ حالُ كونك غيرَ حاضرٍ القلبِ، ولا خاشعٍ القلبِ، ولا متواضعٍ للشهودِ، ولا مطمئنٍ الوجودِ، وقد قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿[الحج: ٣٤-٣٥]﴾ أي: اضطربت وخافت في أمر الدين.

وصلاتك إن كنت بذلت المجهود في إحكامها وإتقانها وإخلاصها وإحسانها لا تكاد تصلح لحضرة هذا الملك الكريم والسُلطان العظيم؛ لا سيما في جنب طاعات المُقَرَّبِينَ من الملائكة والمرسلين، كيف وقد كانت منك عن قلب غافل مُختلط بأنواع العيوب، وقال مُتَنَجِّسٍ بأصناف الذنوب، ولسان مُتَلَطِّخٍ بالمناهي، وجوارح مُتَضَمِّخَةٍ بأقذار المَلاهي، فكيف تصلح هذه العبادة أن تُحْمَلَ إلى تلك الحضرة، وكيف تستأهل أن تُهدى إلى ربِّ العزة؟! بل تليق أن تُلفَّ وتُردَّ إلى وجه مُهديها، ويُعاقَبُ فاعلها على تقصيراته فيها.

فتأمل أيها الغافل، وإن كنت تظنُّ أنَّك العاقل، هل وجَّهْتَ قطُّ صلاةً من صلواتك إلى السَّماءِ كمائدةٍ بعثتها إلى بيتٍ من بيوت الأغنياء، ولهذا كان أبو بكرٍ الورَّاقُ شيخُ المشايخ بالاتِّفاق يقول: ما فرغت قطُّ من صلاةٍ إلا استحيتُ حين فرغت منها أشدَّ حياءً من حياءِ امرأةٍ فرغت من الزَّنا^(١).

تُخَاطِبُهُ إِيَّاكَ نَعْبُدُ مُقْبِلًا عَلَى غَيْرِهِ فِيهَا لَغَيْرِ ضَرُورَةٍ محلُّ جملة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) منصوبٌ على المفعول الثاني بنزع الخافض، أو مفعولٌ لحالٍ مقدَّرٍ؛ أي: قائلٌ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ، و(مُقْبِلًا) حالٌ من فاعل (تُخَاطِبُهُ)، أو مفعولُه، وضميرُ (فيها) للصلاة، أو للقراءة، و(لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ) علَّةٌ متعلِّقةٌ بـ (مُقْبِلًا).

والمعنى: تُخَاطِبُ اللهَ تعالى وتناجيه عندَ قراءتك؛ نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفتحة: ٥]، غافلاً عمَّا فيه بل فاعلاً لِمَا يُنَافِيهِ، وهو إعراضك بالقلب عن الله، والتفاتك بالقلب عن بيته وحِذَاهُ، ومُقْبِلًا ومُتَوَجِّهًا إلى ما سواه، خصوصاً في تلك الساعة، ولا سيما في تلك الطاعة من غير ضرورة دينية أو دنيوية أحوجتك إليه، أو ألجأتك عليه.

(١) انظر: «فيض القدير» (٢/ ٣٣٣).

ومعنى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: نخضك بالعبادة والاستعانة في أمر الدنيا والدين، وهذه الآية مُشتملة على سائر منازل السائرين، ومحتوية على جملة مقامات السالكين.

وقد قيل: الفقرة الأولى تفرقة، والثانية جمعيّة، كما أن الأولى ردّ على الجبرية، والأخرى إبطال للقدرية، لكنّ القيام بهما مقام خاص، ولا يثبت عليهما إلا الخواص، ولذا قال مالك بن دينار: لولا أن هذه الآية أمر من أمر الله لَمَّا قرأتها قَطُّ؛ لعدم صدقي فيها؛ يعني: خوفاً من العمل بما ينافيها، ورؤي في الحديث القدسي والكلام الأنسي: «أن العبد إذا قرأ هذه الآية - أي: على وجه الغفلة أو الرياء والسمعة - يقول الله تعالى له: كذبت؛ لو كنت إِيَّاي تعبد لم تُطع غيري، ولم تلتفت إلى ما سواي، ولو كنت بي تستعين لم ترفع حوائجك إلى ذليل مثلك، ولم تسكن إلى مالك وكسبك»^(١)، والله تعالى أعلم.

ولورَدَ مَنْ نَاجَاكَ لِلغَيْرِ طَرْفُهُ تَمَيَّزَتْ مِنْ غَيْظٍ عَلَيْهِ وَغَيْرَةٍ
الواو حالية، و(لو) شرطية، و(مَنْ) موصولة، فاعل (رَدَّ)، و(طَرْفُهُ) مفعوله، و(لِلغَيْرِ) مُتَعَلِّقٌ بـ (رَدَّ)، واللام بمعنى (إلى)، و(تَمَيَّزَتْ) جواب الشرط، و(عَلَيْهِ) متعلق به، و(مِنْ) تعليلية له، و(غَيْرَةٍ) بالفتح عطف على (غَيْظٍ) والتنوين فيهما للتعظيم، وبين الغير والغيرة صنيع تجانس من البديع. والمعنى: أن هذا الذي سبق حالك مما يدُّ على أنه يقبح مالك حين أعرضت عن إقبال الله وأقبلت على ما سواه، والحال أنه لو رَدَّ أحد من المخلوقين مَمَّنْ نَاجَاكَ أو دعاكَ أو ناداك نظره وبصره إلى ما سواكَ؛ لتقطعت وتشققت عليه، وغضبت غضباً شديداً بالنسبة إليه؛ من أجل الغيظ الحاصل من الغيرة في نظره إلى الغير، سواء طلب

(١) لم أقف عليه.

منه دفعَ الضير أو جلبَ الخير، مع أنَّ ما سواه تعالى يكونُ عنده هباءً منثوراً، لا يملكونَ لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً، ولا يملكونَ موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

أَمَّا تَسْتَحِي مِنْ مَالِكِ الْمُلْكِ أَنْ يَرَى صُدُودَكَ عَنْهُ يَا قَلِيلَ الْمُرُوءَةِ
الهمزة استفهامية إنكارية، و(ما) نافية، والمرادُ منهما التقرير، ويُقال: استحيي يستحيي، واستحي يستحي، بحذف الياء بعد نقل حركتها إلى ما قبلها، والبيت من اللغة الثانية، و(مِنْ) صلته، و(أَنْ يَرَى) محله النصبُ على أنه مفعولُه بتأويل المصدر، و(صُدُودَكَ) مفعولُ (يَرَى) يُقال: صَدَّ صُدُوداً؛ أي: أعرَضَ وَصَدَّ صَدّاً؛ أي: منعَ، وضميرُ (عنه) بالإشباع راجعٌ إلى (مَالِكِ الْمُلْكِ)، و(الْمُرُوءَةِ) بالهمز والتشديد أيضاً، وهي التخلُّقُ بأخلاقِ أمثالِ المرءِ من الكَمالاتِ الإنسانية.

يقول: استحي يا قليلَ المروءة، يا كثيرَ الغفلة في مباشرة طاعتِكَ فضلاً عن معالجة معصيتِكَ من مالِكِ المُلْكِ الذي تحتَ أمره كُلُّ مَلِكٍ وَمَلِكٍ، وببِد تصرُّفه كُلُّ مُلْكٍ وَمَلِكٍ؛ فهو مالِكُ المُلْكِ والأَملاكِ، وخالقُ الأرضين والأفلاكِ؛ أن يَرَى إعراضَكَ بالقلبِ والقلبِ عن عبادته، أو اعتراضَكَ على أمرٍ من قضائه وقدره ومشيتِهِ وإرادته، أو التفاتَكَ إلى ما سواه، واعتمادَكَ على غيره في جميع تصرُّفاته.

وفي البيتِ إشارةٌ إلى ما ورد: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»^(١)، والروايةُ برفعِ (النَّاسِ)، وَجُوزَ نصبه، ومعنى الحديث: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئاً؛ فَإِنْ كَانَ بَحِيْثٌ لَا تَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ وَمِنَ النَّاسِ فِي فَعْلِهِ؛ فَافْعَلْهُ، وَإِلَّا فَلَا. ذكره النووي. فالأمرُ للإباحة، ويجوزُ أن يكونَ للتهديد؛ نحوَ قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]؛ أي: إِذَا نَزَعَ مِنْكَ الْحَيَاءُ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ

(١) رواه البخاري (٣٢٩٦)، وأبو داود (٤٧٩٧)، وابن ماجه (٤١٨٣) من حديث أبي مسعود البدي رضي الله عنه.

يُجازيك عليه، ويكونُ هذا تعظيماً لأثرِ الحياءِ وتنبيهاً لموضعه عند فقده، ولذا ورد: «الحياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١).

قالَ الجُنَيْدُ: الحياءُ: رُؤْيَةُ الْآلَاءِ، وَرُؤْيَةُ التَّقْصِيرِ، فَيَتَوَلَّدُ مِمَّا بَيْنَهُمَا حَالٌ تُسَمَّى: الْحَيَاءُ، وَقَالَ الدَّقَاقُ: هُوَ تَرْكُ الدَّعْوَى بَيْنَ يَدَيِ الْمَوْلَى^(٢).

وَأَنشَدَ بَعْضُ أَهْلِ التَّقْوَى مُنَاسِباً لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْمَعْنَى:

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي وَلَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
فَلَا وَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ وَفِي الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ^(٣)
صَلَاةٌ أُقِيمَتْ يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهَا بِفِعْلِكَ هَذَا طَاعَةٌ كَالْخَطِيئَةِ
(صَلَاةٌ) مُبْتَدَأٌ، وَ(أُقِيمَتْ) صِفْتُهَا، وَجُمْلَةُ (يَعْلَمُ اللَّهُ) الْمُرَادُ فِيهَا الْقَسَمُ الْمُؤَكَّدُ
خَبْرُهُ، وَ(أَنَّ) مَعَ مَدْخُولِهَا سَدَّتْ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ، وَالبَاءُ سَبَبِيَّةٌ، وَ(طَاعَةٌ) خَبَرٌ (أَنَّ)
وَ(كَالْخَطِيئَةِ) صِفَةٌ لَهَا، أَوْ حَالٌ عَنْهَا.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ صَلَاةً تُقِيمُهَا أَيُّهَا الْغَافِلُ وَعِبَادَةٌ تُدِيمُهَا أَيُّهَا الْعَاطِلُ اللَّهُ يَعْلَمُ
أَنَّهَا بِسَبَبِ فِعْلِكَ هَذَا الَّذِي سَبَقَ وَصَفُهُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي شَرَائِطِهَا وَأَرْكَانِهَا
وَإِخْلَاصِهَا وَإِحْكَامِهَا وَإِتْقَانِهَا وَإِحْسَانِهَا، وَمِنَ الْإِعْرَاضِ عَنْ خَشْوَعِهَا
وَخَضْوَعِهَا فِي سَجُودِهَا وَرُكُوعِهَا، وَمِنَ عَدَمِ الْقِيَامِ بِحَقِّ قُعُودِهَا وَمِرَاعَاةِ
شُهُودِهَا، وَمِنَ تَرْكِ رِعَايَةِ الْقِرَاءَةِ وَمُبَانِيهَا، وَالْغَيْبَةِ عَنْ حُضُورِ مَعَانِيهَا؛ لَا سِيَّما
إِذَا انْضَمَّتْ بِالسُّمْعَةِ وَالرِّبَاءِ وَالْغُرُورِ وَالْعُجْبِ وَالْكَبْرِيَاءِ، هِيَ فِي الصُّورَةِ
طَاعَةٌ، وَفِي السَّيْرِ مِثَابَةٌ لِلْخَطِيئَةِ، بَلْ فِي الْحَقِيقَةِ عَيْنُ الْمَعْصِيَةِ، بَلْ أَقْبَحُ

(١) رواه النسائي (٥٠٠٦)، وابن ماجه (٥٨)، وأحمد (٤٤٢ / ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الرسالة القشيرية» (٣٧٠ / ٢).

(٣) البيتان لأبي تمام.

من الكبيرة فضلاً عن الصغيرة، ولذا قيل: معصية أورثت ذلاً وانكساراً خيراً من طاعة أورثت عُجباً واغتراراً^(١).

وَأَعْجَبُ مِنْهَا أَنْ تَدِلَّ بِفِعْلِهَا كَمَنْ قَلَدَ الْمَذْلُولَ بَعْضَ صَنِيعَةِ
دَلَّ الْمَرْأَةَ وَدَلَّالُهَا: تَدَلَّلَهَا عَلَى زَوْجِهَا؛ تُرِيهِ جَرَاءَةً عَلَيْهِ فِي تَغَنُّجٍ، وَتَشْكُلُ؛
كَأَنَّهَا تُخَالِفُهُ وَمَا بِهَا خِلَافٌ، وَقَدْ دَلَّتْ تَدِلُّ؛ بِكَسْرِ الدَّالِ وَيَجُوزُ ضَمُّهَا، وَأَدَلَّ عَلَيْهِ
انْبَسَطَ؛ كَتَدَلَّلَ؛ فَقَوْلُهُ: (تَدِلُّ) يَنْبَغِي أَنْ يُضْبَطَ بِكَسْرِ الدَّالِ مَعَ فَتْحِ حَرْفِ الْمُضَارَعَةِ
أَوْ مَعَ ضَمِّهَا، وَ(أَعْجَبُ) أَفْعَلُ تَفْضِيلٌ، لَا صِغَةً مُتَكَلِّمٍ، وَفِي نُسخَةٍ (أَفْبَحُ) وَهُوَ خَيْرٌ
مُقَدَّمٌ، وَ(أَنْ تَدِلَّ) مُحَلَّةُ الرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ، وَالضَّمِيرُ فِي (مِنْهَا)، وَ(بِفِعْلِهَا)، وَفِي
نُسخَةٍ (بِمِثْلِهَا) رَاجِعٌ إِلَى الطَّاعَةِ، أَوِ الصَّلَاةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ، وَنَصَبَ
(بَعْضَ) عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ ثَانٍ لـ (قَلَدَ)، وَفِي نُسخَةٍ (الصَّنِيعَةِ) وَهِيَ: الْإِحْسَانُ.

وَالْمَعْنَى: إِنَّ سَوْءَ عِبَادَتِكَ مَعَ كَمَالِ غَفْلَتِكَ وَتَقْصِيرِكَ فِي صَنِيعَتِكَ مِمَّا
يَتَعَجَّبُ مِنْهَا الْكَامِلُ وَيَسْتَغْرِبُ مِنْهَا الْعَاقِلُ، وَأَعْجَبُ مِنْ تِلْكَ الطَّاعَةِ الْمُشَبَّهَةِ
بِالْخَطِيئَةِ وَالْعِبَادَةِ الْمُنَاسِبَةِ أَنْ تُسَمَّى الْمَعْصِيَةِ؛ دَلَالُكَ عَلَى اللَّهِ بِفِعْلِهَا وَانْبِسَاطُكَ
عَلَى الْخَلْقِ بِعَمَلِهَا؛ فَكَأَنَّ لَكَ فِيهَا صَنِيعاً عَلَى صَانِعِكَ، أَوْ إِحْسَاناً بَدِيعاً عَلَى أَهْلِ
صَنَائِعِكَ؛ كَمَنْ قَلَدَ مَنْ يَتَدَلَّلُ عَلَيْهِ وَيَنْبَسِطُ لَدَيْهِ مِنْهُ بَعْضُ الصَّنِيعَةِ الْوَاقِعَةِ عَلَى يَدَيْهِ.
وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا نَقْصَانٌ فِي طَوْرِ الْإِنْسَانِ، وَلَا يَقَعُ غَالِباً إِلَّا فِي النَّسْوَانِ، وَمَا
أَشْبَهَهُنَّ مِنْ نَاقِصِي الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى كَامِلِ الْإِقْيَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ؛ فَمَنْ أَحْسَنَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا؛ لِأَنَّ ثَوَابَ
الطَّاعَةِ وَعِقَابَ الْمَعْصِيَةِ رَاجِعٌ إِلَيْهَا، بَلْ يُحِبُّ أَنْ يَعْرِفَ نِعْمَةَ اللَّهِ فِي هِدَايَتِهِ إِلَى
الْإِيمَانِ، وَعِصْمَتِهِ عَنِ الْعِصْيَانِ، وَتَوْفِيقِهِ عَلَى عِبَادَتِهِ بِالْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ، وَيَطْلُبُ

(١) انظر: «الحكم العطائية» لابن عطاء الله السكندري، الحكمة السادسة والتسعون.

من فضله العميم، وكرمه القديم أن يقبل هذه البضاعة المزجاة، وأن يستر عليه ما وقع له من أفعال العصاة.

وَأَنْ يَعْتَرِيكَ الْعُجْبُ أَيْضاً بِكَوْنِهَا عَلَى مَا حَوَّثَهُ مِنْ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ
(وَأَنْ) عطف على (أَنْ تَدِلَّ)، وسُكِّنَتِ الياء ضرورةً، و(الْعُجْبُ) فاعل،
و(بِكَوْنِهَا) متعلق بالفعل، أو بـ (الْعُجْبُ)، و(عَلَى) بمعنى (مع)، و(مَا) موصولة،
أو موصوفة، و(مِنْ) بيانية لـ (مَا)، و(رِيَاءٍ) بهمز، ويجوز إبداله بياءً.

والمعنى: وأعجب من طاعتك، وأقبح من عبادتك أن يُصيبك أيها الغافل،
ويحصل لك أيها العاقل العجب أيضاً مع الغرور والدلال، والغفلة عن معرفة نقصان
الطاعة، وتوهم الكمال بوجود هذه الطاعة المعدومة، وثبوت هذه العبادة المشؤومة
مع ما اشتملت عليه من الرياء والسُّمعة؛ حيث قصدت أن يرى عملك الحاضرون،
ويسمع فعلك الغائبون، وهما من المفسدات للعبادات؛ كما أن العجب والدلال من
المبطلات للطاعات.

فحق للعاقل أن يرى حقارة عمله وعظمة ربه وكثرة فضله، وأن لا يرى
إلا منة الله عليه فيما وفقه للطاعة، وأحسن إليه، وجعل له أهلية بالقيام بين
يديه، ويعرض الحاجات لديه، وأن يعرض بالإعراض الكلي عن الشرك الجلي
والخفي، وينظر إلى ما قال بعض أرباب الحال:

يا مُبْتَغِي الحَمْدِ بِالثَّوَابِ	في عملٍ تَبْتَغِي المَحَالَ
قَدْ خَيَّبَ اللَّهُ ذَا رِيَاءٍ	وأبطل السَّعْيَ والكَلَالَ
مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّ	أخلص من خوفه الفَعَالَ
الْخُلْدِ وَالنَّارُ فِي يَدَيْهِ	فرائه يُعْطِيكَ النِّوَالَ

والناس لا يملكون شيئاً فكيف رأيتهم ضللاً
 ذُنُوبُكَ فِي الطَّاعَاتِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ إِذَا عُدَّدْتَ تَكْفِيكَ عَنْ كُلِّ زَلَّةٍ
 (ذُنُوبُكَ) مبتدأ، و(فِي الطَّاعَاتِ) صفة، وجملة (وَهِيَ كَثِيرَةٌ) مُعْتَرِضَةٌ، والواو
 حالية، والهاء ساكنة، وهي لغة، و(إِذَا) ظرفية، و(عُدَّدْتَ) صيغة مجهول؛ أي: جعلت
 معدودة، والخبر (تَكْفِيكَ).

والمعنى: ذُنُوبُكَ الكائنة فِي الطَّاعَاتِ، والكامنة فِي طَيِّ الْعِبَادَاتِ؛ من
 الْعُجْبِ وَالْغُرُورِ وَالرِّيَاءِ وَالشُّمُوعَةِ، وسائرِ الْمُخَالَفاتِ، وهي كثيرة، بل كُلُّ
 واحدةٍ كبيرةٍ إِذَا ذُكِرَتْ واحدةً بعدَ واحدةٍ، وَبَيَّنْتَ عَائِدَةً بعدَ عَائِدَةٍ؛ تَكْفِيكَ
 أَيُّهَا الْمُعْجَبُ الْمَغْرُورُ وَالْمُبْعَدُ عَنْ مَرْتَبَةِ الْحُضُورِ عَنْ كُلِّ زَلَّةٍ وَمَعْصِيَةٍ وَخَطِيئَةٍ
 وَسَيِّئَةٍ، تستحقُّ بها العذابَ، وتستوجبُ بها عقابَ الحجابِ؛ فكيف إِذَا انضَمَّتِ
 السيئاتُ الخارجةُ عن تقصيراتِ الطَّاعَاتِ.

فغفلتكَ عن هذه الحالاتِ من الغرائبِ والأعجوباتِ، وأنتَ عبدهُ وفي
 جِرايته ومقبوضٌ تحتَ قُدرته وإرادته، واللهُ سبحانه لا يظلمُ مثقالَ ذَرَّةٍ من نقصِ
 ثوابٍ أو زيادةِ عقابٍ، مع أَنَّهُ لو عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ عَلَى طُولِ مُلْكِهِ
 وَعَرَضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ؛ فكنْ بينَ الخوفِ والرجاءِ، ولا تعدلْ عن
 اعتدالِ أَهْلِ الصِّفَاءِ وَالْوَفَاءِ.

سَيِّئُكَ أَنْ تَسْتَغْفِرَ اللَّهَ بَعْدَهَا وَأَنْ تَتَلَفَى الذَّنْبَ مِنْهَا بِتَوْبَةٍ
 (سَيِّئُكَ) مبتدأ خبره (أَنْ تَسْتَغْفِرَ اللَّهَ) بتأويلِ المَصْدَرِ، و(بَعْدَهَا) ظرفٌ
 لَهُ، وضميرُها، ومنها إِلَى الطَّاعَةِ الْمُشَبَّهَةِ بِالْخَطِيئَةِ، و(أَنْ تَتَلَفَى) خبرٌ بعدَ خبرٍ،
 و(بِتَوْبَةٍ) متعلِّقٌ بِهِ.

يعني: ليس طريقك إذا عملت طاعة من الأعمال أن يترتب عليها العُجب والدَّلال، بل سبيلك أن تستغفر الله بعد تلك العبادة من التقصيرات الواقعة في تلك الطاعة، وأن تتدارك جنس الذنب الصادر منها فضلاً عما وقع وصدَرَ في أمرٍ خارجٍ عنها بتحصيل التوبة، وهي الرجوع عن المعصية إلى الطاعة بالندامة، والإقلاع عن المعصية، والعزم على ألا يعود إليها ألبتة.

والحاصل: أن جملة طاعاتك مخلوطة بالمعاصي في عين عباداتك فضلاً عن سائر حالاتك؛ فكن مُستغفراً بلسانك بعد تمامها مُعترفاً بنقصانها وعدم إمامها، مُقرراً باستحقاق العقوبة على فعلها؛ لولا أن الله تعالى يتفضل عليك بتقبلها، وراجعاً بقلبك وقالبك إليه للندامة على ما صدر عنك لديه.

وقد ثبت أنه ﷺ وشرف وكرم لما صلى صلاته وسلم قال: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ثَلَاثًا^(١)، ولعل الاستغفار الأول من التقصير في العمل، والثاني من خُطور رؤيته، والثالث من حوله وقوته، وهذه مرتبة الجمع بعد التفرقة، والتفرقة بينهما تجرُّ إلى جمع الزندقة.

فَيَا عَامِلًا لِلنَّارِ جِسْمُكَ لَيِّنٌ فَجَرَّبُهُ تَمَرِينًا بِحَرِّ الظَّهِيرَةِ
(فَيَا عَامِلًا) مُنادى نكرة؛ كيا رجلاً، أو منادى مُشَبَّهاً بالمضاف؛ ك: يا طالعاً جَبَلًا، و(جِسْمُكَ لَيِّنٌ) مبتدأ وخبر، والفاء فصيحة، و(تَمَرِينًا) علة، يُقال: مرَّنه فتمرَّنَ؛ أي: درَّبه فتدرب، و(بِحَرِّ) يتعلَّق بالفعل، أو بالمصدر، والظهيرة: هي وقت اشتداد الحرِّ، والباء ظرفية.

يعني: أيها العامل للنار الفاعل صنيع الفجار؛ بالطاعة المخلوطة بالمعصية، وبالعبادة المُشَبَّهة بالخطيئة، وبسائر أنواع الذنب والسيئة، جِسْمُكَ لَيِّنٌ، ورسمك هين، وخطوك بين، وعذابك عين؛ فجرَّب كل بدنك أو بعض عُضوك بالوضع على رملٍ

(١) تقدم تخريجه.

حارٍ، أو على جمرة نارٍ؛ لكي تتعوّد بها وتتمرّن بقربها قريب الزوال؛ حيثُ أثرُ شعاعِ الشمسِ على وجهِ الكمالِ، مع البُعدِ بينك وبينها من المسافةِ المديدة، وهي من جملةِ أجزاءِ النارِ المعدودةِ العديدة؛ فإذا كان الأمرُ كذلك؛ فارحمْ نفسك العاجزةَ لذلك.

وفي البيتِ إشارةٌ إلى قوله تعالى تعجيباً من عملِ الفجارِ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]، وإلى قوله ﷺ على ما في «الصحيحين»: «ناركم جزءٌ من سبعينَ جزءاً من نارِ جهنّم»، قيل: يا رسولَ الله! إن كانت لكافية! قال: «فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَ بتسعةٍ وستينَ جزءاً؛ كُلُّهُنَّ مثلُ حرّها»^(١).

وقد وضع ﷺ إصبعه المباركة في أطعمة حارّة؛ فأثّرت فيها الحرارةُ الطبيعيةُ بمقتضى الانفعالاتِ البشرية، فقال ما معناه: «آه؛ لا نصبرُ على حرٍّ ولا بردٍ ممّا شاء الله، لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله»^(٢).

فتأمل أيها الغافلُ في لينِ جسمِكَ، وضعفِ صبرِكَ، وقلةِ حيلتِكَ على ذلك؛ فإنّ مَنْ لا يحتملُ حرّاً شمسٍ، ولطمةَ شرطيٍّ، وقرصةَ نملةٍ في الدنيا، كيفَ يحتملُ في دارِ العقبي حرَّ نارِ جهنّم، وضربَ مقامعِ الزبانية، ولسعَ حيّاتٍ كأعناقِ البُخْتِ، وعقاربَ كالبغالِ خلقتُ من النارِ في دارِ الغضبِ والبوارِ، وبهذا الحالِ أشارَ الشيخُ حيثُ قال:

وَدَرَّجُهُ فِي لَسَعِ الزَّانِبِ تَجْتَرِي عَلَى لَسَعِ حَيَّاتٍ هُنَاكَ عَظِيمَةٍ

(١) رواه البخاري (٢٨٤٣)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤ / ٢٣١) من حديث خولة بنت قيس رضي الله عنها، ولفظه: قالت دخل عليّ رسول الله ﷺ فَجَعَلْتُ لَهُ خَرِيزَةً فَقَدَّمْتُهَا إِلَيْهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِيهَا فَوَجَدَ حَرًّا فَقَبَضَهَا فَقَالَ: «يَا خَوْلَةُ لَا نَصْبِرُ عَلَى حَرٍّ وَلَا بَرْدٍ، يَا خَوْلَةُ إِنَّ اللَّهَ أَعْطَانِي الْكَوْثَرَ وَهُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَا خَلَقَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ يَرْدُهُ مِنْ قَوْمِكَ»، ورجاله رجال الصحيح.

الواو عاطفة على (جَرَّبَهُ)، والتدريج: فعل الشيء درجة درجة، ومرتبة مرتبة، واللسع: اللدغ، والزناير جمع الزنور، و(تَجْتَرِي) من الجرأة؛ سُكِّنَ همزته ضرورة، ثم أبدلت ياءً، أو على مذهب حمزة في الوقف على الهمزة، وهمزة الاستفهام مُقدَّرة على أول الفعل، و(هناك) ظرف للبعيد، والمراد: الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿[المعارج: ٦].

والمعنى: ودرج بدنك اللطيف وجسمك الظريف في لدغ الزناير هنا في دار الهناء؛ اختباراً وامتحاناً، أتقدر للجرأة على لسع حيات عظيمة وعقارب جسيمة؛ كأمثال البُخت، تلسع إحداهنّ اللسعة فتجد حموتها أربعين خريفاً، وإن في النار عقارب كأمثال البغال المؤلفة تلسع إحداهنّ اللسعة فتجد حموتها أربعين خريفاً هذا.

وفي الحديث الصحيح: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟!»^(١)، وورد: «لو أن دلواً من عساق يهراق في الدنيا لأتنت أهل الدنيا»^(٢)، وعن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ [الدخان: ٤٥]؛ أي: كعكر الزيت؛ فإذا قُرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه^(٣)، وقد قال تعالى: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ (١١) يَجْرَعُهُ، وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿[إبراهيم: ١٦ - ١٧].

(١) رواه الترمذي (٢٥٨٧)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، وأحمد (١ / ٣٠٠)، والحاكم (٣٦٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الترمذي (٢٥٨٤)، وأحمد (٣ / ٢٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، وفيه رشدين، وهو ضعيف.

(٣) رواه الترمذي (٣٣٢٢)، وأحمد (٣ / ٧٠)، والحاكم (٨٧٨٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَقْوَى فَوَيْحَكَ مَا الَّذِي دَعَاكَ إِلَى إِسْحَاطِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ
فجملته (لَا تَقْوَى) محلها النصب على أنها خبر (كان)، وجزاء الشرط
قوله: (فَوَيْحَكَ)، و(ما) استفهامية مبتدأ خبره الموصول بصلته، و(البرية)
بالهمز على أصله، ويُشَدَّدُ عند الجمهور، ومعناه: الخليفة، ومنه قوله تعالى:
﴿أُولَئِكَ هُمُ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]، و﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

أي: فإن كنت أيتها الضعيفُ بالبدنِ الطريِّ في الدنيا لا تقوى على العذابِ
الأدنى، ولعذابِ الآخرةِ أشدُّ وأبقى؛ فويحك، بل فويلك ثم ويليكَ ما الباعثُ الذي
دعاكَ إلى إسحاطِ ربِّ الخلائقِ بتركِ ما أُمِرَ به من قطعِ العلائقِ، ومنعِ العوائقِ،
ومن الاشتغالِ بموجباتِ رحمته، والإعراضِ عن المعاصيِ المُقتضيةِ لِسَخَطِهِ
وعُقوبته؛ فإنَّ رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين، وإنَّ جهنمَ لمُحيطةٌ بالكافرين.

وُخْلاصةُ الكلامِ وزُبدَةُ المرامِ: أنَّ الله تعالى صفاتِ الجلالِ ونعوتِ الجمالِ،
وبهما تجتمعُ أوصافُ الكمالِ، ولكلُّ منهما أعمالٌ، ورجالٌ، ومقامٌ، ومقالٌ؛ فالأنبياءُ
والأولياءُ مظاهرُ النُّعوتِ الجماليةِ، والشياطينُ والكفارُ مظاهرُ الصِّفاتِ الجلاليةِ؛
فينشأ من كلِّ من المَظهرينِ ما ناسبُهُما من العقائدِ والأعمالِ والأخلاقِ والأحوالِ
المرضيةِ، أو المُعتقداتِ والأفعالِ والشَّمائلِ الدِّنيَّةِ؛ كما قال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ
لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

ومأل كلِّ من الفريقينِ إلى ما يليقُ بهما من المَكَانينِ، كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي
الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]؛ فهم درجاتٌ عندَ الله، كما أنهم دركاتٌ عندَ الله،
فاعملوا فكلُّ ميسرٍ لما خُلِقَ له، وسبحانَ مَنْ أقامَ العبادَ فيما أَرَادَ، وقَسَمَ القِسامَ والناسُ
نِيامٌ، والعبرةُ بالخواتيمِ، سواءً المُسافرُ والمُقيمُ، ولا نفتحُ بابَ القضاءِ والقدرِ؛ فإنَّ ليسَ
لأحدٍ عن حقيقتهِ خبرٌ حتَّى العلماءُ العاملونُ، بل قل كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا
يُسْأَلُ عَنْهُمَا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

تُبَارِزُهُ بِالْمُنْكَرَاتِ عَشِيَّةً وَتُصْبِحُ فِي أَثْوَابِ نُسْكِ وَعِفَّةٍ
 المُبارزة: المُظاهرة، والمُفاعلة إذا لم تكن للمُغالبة فهي للمُبالغة، والضمير
 راجعُ إلى الله تعالى، والباءُ للتعدية، و(عَشِيَّةً) ظرفٌ، وأرادَ بها ليلاً بقرينةِ مقابَلتهِ
 بقوله: (تُصْبِحُ) ففيه صَنَعَةُ الطَّبَاقِ من البديع، والنُّسْكُ؛ بضمٍّ وسكونٍ: العبادة،
 والعِفَّةُ؛ بالكسر: التعفُّفُ عن المَعْصِيَةِ.

والمعنى: إِنَّكَ تُخَالِفُ الْمُطَّلِعَ عَلَى الْخَفِيَّاتِ؛ من الكَلِيَّاتِ والجزئيات بفعلِ
 المنكرات، وإظهارِ السيِّئاتِ الواقعةِ منك في الليالي من الساعاتِ التي كانت أُولَى أَنْ
 تُصَرِّفَ إِلَى الطَّاعَاتِ، وَتُصْبِحُ وَتَدْخُلُ فِي النَّهَارِ حَالَ كَوْنِكَ مُتَلَبِّساً بلباسِ الأخيارِ،
 مُشْعِراً بشعارِ الأبرارِ، مُظْهِراً أَنَّكَ صَاحِبُ عِبَادَةٍ، ومُشِيراً إِلَى أَنَّكَ ذُو عِفَّةٍ؛ فهذا
 واللهِ صِفَةُ الْمُتَنَافِقِينَ الَّذِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَنَعْتُ الْمُؤَافِقِينَ؛ لِمَا قَالَ تَعَالَى
 فِيهِمْ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ
 بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وهذا عَكْسُ حَالِ الْخَائِفِينَ
 وَالْمُخْلِصِينَ؛ حَيْثُ يُخَفُونَ عِبَادَتَهُمْ وَيُسْرُونَ طَاعَتَهُمْ، وَيَتَلَبَّسُونَ بلباسِ عامَّةِ
 النَّاسِ، وَيُظْهِرُونَ الْإِفْلَاسَ مِنَ الْاسْتِنَاسِ.

بل بالغَ منهم جماعةٌ من الصُّوفِيَّةِ؛ تُسَمَّى الْمَلَامِيَّةِ؛ حَيْثُ يَفْعَلُونَ مَا يُتَوَهَّمُ مِنْهُ
 أَنَّ صَاحِبَهُ مُرْتَكِبُ الْمَعْصِيَةِ؛ دَفْعاً لِلْخَوَاطِرِ الرَّدِيَّةِ، الْحَاصِلَةِ لَهُمْ مِنَ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ،
 وَمَنْعاً لِلنَّاسِ عَنِ الْإِعْتِقَادِ بِهِمْ؛ حَيْثُ يَشْغَلُونَهُمْ عَنِ الْحَضَرَةِ، لَكِنَّ الْكَمَلَ مِنْهُمْ
 مُسْتَقِيمُونَ عَلَى الْجَادَّةِ؛ تَارَةً فِي السُّوقِ، وَمَرَّةً فِي السَّجَادَةِ، لَا يَطْعَمُونَ مِنْ أَحَدٍ شَيْئاً
 مِنَ الْمَلَامِ، وَلَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، وَلِذَا قَالَ الْفُضَيْلُ: الْعَمَلُ لِلنَّاسِ شَرٌّ،
 وَتَرْكُهُ لِلنَّاسِ رِيَاءٌ، وَالْإِخْلَاصُ: أَنْ يُخَلِّصَكَ اللَّهُ مِنْهُمَا.

وفيه إشارةٌ لطيفةٌ إِلَى أَنَّ الْمُخْلِصِينَ - بفتح اللام - أعلى مرتبةً من الْمُخْلِصِينَ

- بكسرهما - بل قال بعض العارفين في قولهم: المُخْلِصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ؛ يعني: بنسبته الإخلاص إلى نفسه اللئيم، وبالعفلة عن فعلِ رَبِّهِ الكريم.

فَأَنْتَ عَلَيْهِ مِنْكَ أَجْرَى عَلَى الْوَرَى لِمَا فِيكَ مِنْ جَهْلٍ وَخُبْطٍ طَوِيَّةٍ
الفاءُ تفريعيةٌ، أو فصيحةٌ، و(عليه) بإشباع الضميرِ الراجعِ إلى الله، و(منك) متعلِّقٌ بـ (أجرى) أَفْعَلُ تفضيلٍ من الجرأة؛ خُفِّفَتِ الهمزة، وكذا يَتَعَلَّقُ به (على الورى) وهو: الخلق، ولَمْ (لِمَا) عِلَّةٌ، و(ما) موصولةٌ أو موصوفةٌ، و(فيك) مع مُتَعَلِّقِهِ الْمُقَدَّرِ صلته، و(من) بيانٌ لـ (ما)، والتنوينُ في (جهلٍ) للتعظيم، والطويَّةُ: الضميرُ والنيةُ.

والمعنى: فأنت بالعملِ السَّابِقِ على ربِّكَ الخالقِ الرازقِ أكثرُ جرأةٍ منك على الخلائق؛ حيثُ تُبَارِزُهُ بالمعاصي سرًّا، وتُظْهِرُ العباداتِ للمخلوقين جهراً، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَدَمَّ سَبْحَانُهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمَرَّاثِينَ؛ وهذا كله منك إنما هو لِمَا فِيكَ مِنْ جَهْلٍ عَظِيمٍ بِمَعْرِفَةِ رَبِّكَ بل بِمَعْرِفَةِ نَفْسِكَ وَغَيْرِكَ، ممن هو مخلوقٌ وعاجزٌ مثلك، وَلِمَا فِيكَ مِنْ خَبَاثَةِ ضَمِيرِكَ وَنِيَّتِكَ، والله أعلم.

تَقُولُ مَعَ الْعِصْيَانِ رَبِّي غَافِرٌ صَدَقْتَ وَلَكِنْ غَافِرٌ بِالْمَشِئَةِ
(مَعَ الْعِصْيَانِ) حَالٌ، والمَقُولُ جملةُ (رَبِّي غَافِرٌ) وهو بفتح ياءٍ الإضافة، والمَشِئَةُ بالهمزِ ويبدلُ ويُدْغَمُ.

والمعنى: تقولُ حالَ كونِكَ مُبَاشِراً لِلْعِصْيَانِ وَمُعَاشِراً لِلْأَرْبَابِ الظُّلَمِ وَالطُّغْيَانِ: رَبِّي موصوفٌ بنعتِ الغفرانِ، صدقتَ في هذا القولِ بالاتِّفَاقِ؛ لكنْ أَخْطَأْتَ حيثُ عَبَّرْتَ عَنْهُ بِالْإِطْلَاقِ؛ فَإِنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّهُ غَافِرٌ لِأَهْلِ الْمَعْصِيَةِ وَلَكِنْ غَافِرٌ مُقَيَّدٌ بِالْمَشِئَةِ؛

حَيْثُ قَالَ: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فَالْحَكْمُ إِذَا كَانَ مُقَيَّدًا بِالْمَشِيئَةِ لَا يُحْكَمُ بِتَعَلُّقِهَا بِكُلِّ مَعْصِيَةٍ، فَكَانَ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَاتْرَكَ السُّمْعَةَ وَالرِّيَاءَ؛ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ، وَلَا يَبْتَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ.

وَرَبُّكَ رَزَّاقٌ كَمَا هُوَ غَافِرٌ فَلِمَ لَا تُصَدِّقُ فِيهِمَا بِالسَّوِيَّةِ الْكَافِ لِلتَّشْبِيهِ، وَ(مَا) كَافَّةٌ، وَسُكِّنَ مِيمٌ (فَلِمَ) وَالْقَافُ لِلنَّظْمِ، وَالضَّمِيرُ (فِيهِمَا) رَاجِعٌ إِلَى الْوَصْفَيْنِ، وَ(السَّوِيَّةِ) صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحذُوفٍ؛ أَي: بِالطَّرِيقِ السَّوِيَّةِ.

يَعْنِي: (وَرَبُّكَ رَزَّاقٌ) أَي: كَثِيرُ الرِّزْقِ لِعِبَادِهِ، كَمَا أَنَّهُ غَافِرٌ لِعِبَادِهِ فَلِمَ لَا تُصَدِّقُ فِي الْوَصْفَيْنِ بِالْإِسْتِوَاءِ بَيْنَ النَّعْتَيْنِ؛ حَيْثُ تَسْعَى وَتَجْتَهِدُ فِي أَمْرِ الْمَعِيشَةِ إِلَى أَنْ تَرْتَكِبَ كَثِيرًا مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَلَمْ تَتَوَجَّهْ إِلَى الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَلَمْ تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَلَمْ تَخْتَرْ الْعِفَّةَ وَالزَّهَادَةَ، وَلَمْ تَقُلْ: هُوَ رَازِقٌ وَلَوْ تَرَكَ الْعِبْدُ اجْتِهَادَهُ، وَإِذَا صَدَرَ مِنْكَ شَيْءٌ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالْكِبَائِرِ؛ تَقُولُ: رَبِّي غَفُورٌ وَكَرِيمٌ وَغَافِرٌ، مَعَ أَنَّهُ قَيَّدَ الْمَغْفِرَةَ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَلِيَّ لَغَفَّارٍ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢]، وَجَعَلَهَا مُبْهَمَةً تَحْتَ الْمَشِيئَةِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْكِتَابِ، وَأَطْلَقَ بَابَ الرِّزْقِ عَلَى وَجْهِ الْخَلْقِ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٨]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]؛ تَعْمِيمًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَكَانَ مُقْتَضًى الْمَقَابِلَةِ أَنْ يَقُولَ: غَفَّارٌ بِصِغَةِ الْمُبَالَغَةِ لَكِنْ عَدَلَ عَنْهُ لِلضَّرُورَةِ.

هَذَا؛ وَقَدْ قَالَ أَبُو مُطِيعٍ لِحَاتِمِ الْأَصَمِّ: بَلْغَنِي أَنَّكَ تَقْطَعُ الْمَفَاوِزَ بِالتَّوَكُّلِ بَغِيرِ زَادٍ؟ قَالَ حَاتِمٌ: زَادِي أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ، قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: أَرَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ مَمْلُكَةً لِلَّهِ، وَأَرَى الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عِبِيدًا لِلَّهِ وَعِيَالَهُ، وَأَرَى الْأَرْزَاقَ

والأسباب كلها بيد الله، وأرى قضاء الله تعالى نافذاً في جميع أرض الله تعالى؛ فلا يهولني شيئاً غير الله تعالى، قال أبو مُطِيع: نِعَمَ زادك يا حاتم، وإنك لتجوزُ بها مفاوزَ الآخرة أيضاً^(١).

ولقد صدق من قال من أرباب الحال:

أَرَى الزُّهَادَ فِي رَوْحٍ وَرَاحَةٍ قُلُوبُهُمْ عَنِ الدُّنْيَا مُزَاحَةٌ
إِذَا أَبْصَرْتَهُمْ أَبْصَرْتَ قَوْمًا مُلُوكُ الْأَرْضِ سَيِّمَتُهُمْ سَمَاحَةٌ^(٢)
لَأَنَّكَ تَرْجُو الْعَفْوَ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ وَلَسْتَ تُرْجِي الرِّزْقَ إِلَّا بِحِيلَةٍ
(تُرْجِي) بِتَشْدِيدِ الْجِيمِ؛ مِنْ رَجَا؛ مَبَالِغَةُ رَجَاءٍ، وَجَمَلَةٌ (وَلَسْتَ) حَالٌ، أَوْ
عَطْفٌ عَلَى (تَرْجُو).

يعني: عدمُ تصديقك في وصفي ربك من الغفارية والرزاقية على طريق السوية إنما عِلْمٌ لأنك ترجو العفو من غير توبة جزماً، ولا تُقَيِّدُهُ بِالمشيئةِ جزماً، مع أن المغفرة المطلقة مُقَيِّدَةٌ بِالمشيئةِ، والمغفرة المجزومة مُعَلِّقَةٌ بِالتوبةِ، والحال أنك لم ترجو رزق المعيشة إلا بِكَدٍّ وَجِدٍّ، وَمَكْرٍ وَحِيلَةٍ.

عَلَى أَنَّهُ بِالرِّزْقِ كَفَّلَ نَفْسَهُ لِكُلِّ وَلَمْ يَكْفُلْ لِكُلِّ بَجَنَّةٍ
(عَلَى) بِمَعْنَى (مَعَ)، وَ(كَفَّلَ) بِالتَّشْدِيدِ؛ بِمَعْنَى ضَمِنَ، وَ(لَمْ يَكْفُلْ) بِضَمِّ الْفَاءِ مُخَفَّفًا بِمَعْنَاهُ، وَالْجَارَانِ مُتَعَلِّقَانِ بِهِمَا؛ يَعْنِي: أَنَّكَ عَكَسْتَ الْقَضِيَّةَ، وَقَلَبْتَ الْمَسْأَلَةَ؛ حَيْثُ تَجَزَّمُ بِالْعَفْوِ مِنْ غَيْرِ التَّوْبَةِ وَتَجْتَهِدُ فِي تَحْصِيلِ الْمَعِيشَةِ بِالْحِيلَةِ، مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ ذَاتَهُ سُبْحَانَهُ كَفِيلاً لِأَرْزَاقِ جَمِيعِ عِبَادِهِ، وَضَامِناً لِمَعَاشِ كُلِّ عِبَادِهِ، وَلَمْ يَضْمَنْ لِكُلِّ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ وَحَصُولِ

(١) أورده أبو الليث السمرقندي في «تنبيه الغافلين» (ص ٤٦٦).

(٢) انظر: «فيض القدير» (٤/ ٧٣).

الدرجات، بل قال: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٩) وَأَنْ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ [النجم: ٣٩-٤١]، وهذا معنى قوله:

فَلَمْ تَرْضَ إِلَّا السَّعْيَ فِيمَا كُفَيْتَهُ وَإِهْمَالَ مَا كُفِّتَهُ مِنْ وَظِيفَةٍ
(كُفَيْتَهُ) و (كُفِّتَهُ) مجهولان، و (إِهْمَالَ) منصوبٌ على (السَّعْيِ)، و (مِنْ) بيانٌ
(ما) الثانية، وبيانُ الأولى محذوفٌ، وهو مِنْ رِزْقٍ.

يقول: فلم تَرْضَ أَيُّهَا السَّالِكُ فِي الدِّينِ وَالْمُعْتَقِدِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ
الْمَتِينُ، إِلَّا السَّعْيَ وَالْإِسْرَاعَ فِي تَحْصِيلِ الْمَعَاشِ عَلَى وَجْهِ الْجِدِّ وَالْجَهْدِ وَالْكَدِّ
وَالْاجْتِهَادِ، وَإِهْمَالَ مَا كُفِّتَهُ مِنْ وَظِيفَةِ الْعِبَادَاتِ عَلَى الْعِبَادِ؛ مِنْ ارْتِكَابِ الْمَأْمُورَاتِ
وَاجْتِنَابِ الْمَحْظُورَاتِ، وَكَانَ الْقِيَاسُ الْعَقْلِيُّ بِمَقْتَضَى النَّصِّ النُّقْلِيُّ: أَنْ تُهْمَلَ السَّعْيُ
فِي الْمَعِيشَةِ وَتُجَاهَدَ فِي فِعْلِ الطَّاعَةِ وَتُرِكَ الْمَعْصِيَةُ، كَمَا هُوَ شَأْنُ أَكْبَارِ الصُّوفِيَّةِ،
وَلِذَا قَالُوا: الْعَوَامُّ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا قَدَرِيٌّ، وَفِي أَمْرِ السَّعْيِ جَبْرِيٌّ، وَالْخَوَاصُّ فِي أَمْرِ
الْمَعَاشِ جَبْرِيٌّ، وَفِي أَمْرِ الْمَعَادِ قَدَرِيٌّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

تُسَيِّءُ بِهِ ظَنًّا وَتُحْسِنُ تَارَةً عَلَى نَحْوِ مَا يَقْضِي الْهَوَى بِالْقَضِيَّةِ
سَاءَ لَازِمٌ، وَأَسَاءَ مُتَعَدٍّ، وَمِنْهُ الْبَيْتُ، وَكَذَا حَسَنٌ وَأَحْسَنُ، وَ(ظَنًّا) مَفْعُولٌ
بِهِ، وَ(تَارَةً) بِمَعْنَى مَرَّةً، مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، وَ(عَلَى) مُتَعَلِّقٌ بِمَقْدَرٍ؛ أَي: عَلَى نَحْوِ؛
بِمَعْنَى مِثْلِ، وَ(مَا) مَوْصُولَةٌ، أَوْ مَوْصُوفَةٌ، أَوْ مَصْدَرِيَّةٌ، وَاللَّامُ فِي الْهَوَى مَعْهُودَةٌ،
أَوْ بَدَلٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ؛ أَي: هَوَى النِّفْسِ، وَبَيْنَ (تُسَيِّءُ) وَ(تُحْسِنُ) صَنْعَةٌ
الطَّبَاقِ، وَبَيْنَ (يَقْضِي) وَ(الْقَضِيَّةِ) صَنْعَةُ الْاِشْتِقَاقِ.

يعني: تُسَيِّءُ الظَّنَّ بِهِ تَعَالَى مَرَّةً، وَتُحْسِنُهُ بِهِ كَرَّةً؛ بِنَاءً عَلَى وَفْقِ مَا يَحْكُمُ
بِهِ هَوَى نَفْسِكَ الْأَمَّارَةِ فِي الْقَضِيَّةِ الَّتِي فِيهَا الْأَمَّارَةُ وَالْعَلَامَةُ بِالتَّسْوِيَةِ فِي أَنَّهُ

موصوفٌ بالصفاتِ العُلى والأسماءِ الحسنَى، وأنتَ مأمورٌ بأنَّك تُحسِنُ الظنَّ بالمولى في أمورِ الدُّنيا والأخرى.

ففي الحديثِ القدسيِّ: «أنا عندَ ظنِّ عبدي بي فليظنَّ بي ما شاء»^(١)، وقال ﷺ: «لا يموتنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحسِنُ الظنَّ باللهِ تعالى»^(٢).

لكنَّ هنا دَقِيقَةً بالتحقيقِ حَقِيقَةً، وهي أَنَّهُ لا يَشْتَبُهْ عَلَيْكَ حُسْنُ الظنِّ والرجاءُ بالتمنيِّ والغرورِ والهوى؛ فإنَّ الأولَّ محلُّه إذا قامَ بالطاعةِ ورجاءُ المثوبةِ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، والثاني محملُه إذا عَمِلَ المعصيةَ وجزمَ بحصولِ المغفرةِ، ولذا قال ﷺ: «العاقلُ مَنْ دانَ نفسه وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الموتِ، والعاجزُ مَنْ أَتَبَعَ نفسه هواها وتمنى على الله»^(٣).

هذا؛ واعلم أنَّ الحجابَ الأكبرَ بالنسبةِ إلى الأكثرِ هو هُمُ الرِّزْقِ في الدُّنيا، والغفلةُ عن هَمِّ العُقْبَى؛ فمسكينُ ابنِ آدمَ لو اهتمَّ بأمرِ الأخرى كما يعتني بأمرِ الدُّنيا لَكُنِيَ هَمُّهُمَا وَتَمَّ لَهُ جَمْعُهُمَا، لكنْ غلبتْ عليه الأولى؛ فضاعتِ أيضاً عليه الأخرى. وقد ذكرَ اللهُ سبحانه أمرَ الرِّزْقِ في كتابه وأمرَ الخلقَ بالتوكلِ عليه في بابهِ، وعَرَفَهُم بِالْعِبَارَةِ، وَبَيَّنَ لَهُم بِالْإِشَارَةِ؛ حَيْثُ قَالَ اللهُ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: ٣٠] فدلَّ على أنَّ الرِّزْقَ من الله لا من غيره كالخلقِ وسائرِ الأمورِ من قضائِهِ وقدرِهِ، ثم لم يكتفِ بالدَّلَالَةِ وَالْإِشَارَةِ حَتَّى وَعَدَ بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ثم لم يكتفِ بِالْوَعْدِ لِمُخَالَفَةِ الْمُخَلُوقِينَ

(١) رواه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد (١٢٤ / ٤) من حديث شداد بن أوس

رضي الله عنه بلفظ: (الكيس) بدل (العاقل).

في العهد حتى ضَمِنَ؛ فقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ثم لم يكتفِ بالضمانِ حتى أقسمَ فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]، ثم لم يكتفِ بذلك كله حتى أمر بالتوكلِ وأبلغ وأندَر، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

فَمَنْ لم يعتبر قوله، ولم يكتفِ بوعده، ولم يطمئن بضمانه، ولم يقنع بقسمته، ثم لم يُبالِ بأمره ووعده ووَعِيدِهِ؛ فانظر ماذا يكون مأل حاله؛ فانتبه آية مُحَنِّه تَجِيئُهُ مِنْ هَذِهِ، وَآيَةُ مُصِيبَةٍ شَدِيدَةٍ، وَمَحَنِّه أَكِيدَةٍ، وَنَحْنُ مِنْهَا فِي غَفْلَةٍ عَظِيمَةٍ، وَغِيَةِ وَسِيمَةٍ.

ثم اعلم أن الرزق أربعة أقسام: مضمون، ومقسوم، ومملوك، وموعود:

فالمضمون: هو الغذاء، وما به قوام البناء؛ فالضمان من الله تعالى لهذا النوع،

ويجب التوكل بإزائه.

وأما المقسوم: فما كتبه الله في اللوح المحفوظ مما يأكله ويشربه ويلبسه كل أحد، بمقدارٍ مقدَّرٍ ووقتٍ موقَّتٍ لا يزيد ولا ينقص، ولا يتقدم ولا يتأخر؛ فقد ورد: الرزق مُقسَّمٌ مفروغٌ منه، ليس تقوى تقي بزائده، ولا فجورٌ فاجر بناقصه^(١)، ولهذا قيل:

وَكَمْ قَوِيٍّ قَوِيٍّ فِي تَقَلُّبِهِ	مُهْذَبُ الرَّأْيِ عَنْهُ الرِّزْقُ مُنْحَرِفُ
وَكَمْ ضَعِيفٍ ضَعِيفٍ فِي تَقَلُّبِهِ	كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ الْبَحْرِ يَغْتَرِفُ
هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ إِلَهَهُ فِي	الْخَلْقِ سِرٌّ خَفِيٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ ^(٢)

(١) رواه ابن حبان في «المجروحين» (١٢٣٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفيه يوسف بن السفر، وهو كذاب. وانظر: «المقاصد الحسنة» (ص ١٩٢).

(٢) الأبيات لسفيان الثوري، انظر: «حلية الأولياء» (٧ / ٢٧٦)، و«التذكرة الحمدونية» (٨ / ٩٥).

وأما المملوكُ: فما يملكه كلُّ واحدٍ من أموال الدنيا على حسب ما قَدَّرَ الله عزَّ وجلَّ، وقسمَ له أن يملكه، وهو من رزقِ الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٤]؛ أي: مما ملَّكناكم.

وأما الموعودُ: فهو ما وعدَ الله المتقين من عباده بشرطِ التقوى حلالاً من غيرِ كدٍّ وتعبٍ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وفي الحديث: «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب»^(١)، ولهذا قالت الصوفية: (المعلومُ شؤمٌ)، فلعله لما يتعلق به النفس المشؤومُ، ويصيرُ الشخصُ به المعلومُ^(٢)، وقد ورد: «أربعةٌ قد فرغَ الله منهنَّ: الخلقُ، والخلقُ، والرِّزقُ، والأجلُ»، انتهى^(٣).

فإياك والأملَ، وعليك بحسنِ العملِ حتى يأتِكَ الأجلُ، وقد قال ﷺ: «مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِداً هَمَّ آخِرَتِهِ؛ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٤).

وفي الدعاءِ النبويِّ: «اللَّهُمَّ أَفْسِمَ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحَوَّلَ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جِتَّتِكَ، وَمَنِ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، وَمَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا، وَلَا

(١) رواه ابن منده في «مجالسه» (١٧٦)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٠١٢)، والشهاب القضاعي في «مسنده»

(٥٨٥)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١٥٣ / ٢) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) قال القاري في شرح هذه العبارة: (المعلوم شؤم): ولعله لتعلق القلب إليه، والاعتماد عليه، ولا ينبغي التعلُّق إلا بالحقِّ والتوكُّل على الحيِّ المطلق. انظر: «مرقاة المفاتيح» (٢٤٨ / ٥).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩ / ١٩٣)، والدارقطني في «سننه» (٣٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفي سننه عيسى بن المسيب البجلي، وهو ضعيف.

(٤) رواه ابن ماجه (٢٥٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والحاكم (٣٦٥٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنه، وصححه ووافقه الذهبي.

تجعل مُصَيِّبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَأَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجْرُنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١).

إِلَهِي لَا وَاحِدَتَنَا بِذُنُوبِنَا وَلَا تُخْزِنَا وَانْظُرْ إِلَيْنَا بِرَحْمَةٍ
حُذِفَ حَرْفُ النِّدَاءِ مِنْ (إِلَهِي) وَهُوَ بَفَتْحِ الْيَاءِ لُغَةً فِي (يَا غُلَامِي)، وَالْمُؤَاخَذَةُ
بِالْوَاوِ لُغَةً فِي الْمُؤَاخَذَةِ بِالْهَمْزِ، وَالْجُمْلَةُ الْمَنْفِيَةُ خَبَرٌ مَعْنَاهُ الْإِنْشَاءُ، فَأُرِيدَ بِهِ الدُّعَاءُ،
فِيؤُولُ الْكَلَامِ إِلَى لَا تُؤَاخِذْنَا؛ فَصَحَّ عَطْفُ مَا بَعْدَهُ عَلَيْهِ، وَ(بِرَحْمَةٍ) مَتَعَلِّقٌ بِ(انْظُرْ)
وَهِيَ صِفَةٌ لِمُوصُوفٍ مَحْذُوفٍ؛ أَي: بِنَظَرَةٍ رَحِمَةٍ.

وَفِي الْبَيْتِ التَّفَاتُّ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى الْخَالِقِ؛ فَإِنَّ النِّهَايَةَ هِيَ الرُّجُوعُ إِلَى الْبَدَايَةِ،
وَهُوَ الْمَبْدَأُ، وَإِلَيْهِ الْمُنتَهَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى عَجْزِ الْعَبْدِ، وَضَعْفِ حَالَتِهِ، وَالرُّجُوعِ إِلَى قُدْرَةِ الرَّبِّ
وَقُوَّتِهِ، وَأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَا يَخْلُو مِنَ الذُّنُوبِ، وَلَا يَطْهَرُ بِالْكَلْبَةِ مِنَ الْعُيُوبِ، وَلِذَا
أَكْمَلَ الْبَشَرَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قَالَ: «اسْتَغْفِرُوا؛ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ
يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»، وَفِي رَوَايَةٍ «مِائَةً مَرَّةً»^(٢).

- (١) هَذَا الدُّعَاءُ مُشْتَمِلٌ عَلَى عِدَّةِ أَدْعِيَةٍ نَبَوِيَّةٍ؛ الْأَوَّلُ مِنْ قَوْلِهِ: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ...» إِلَى «وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا» رَوَاهُ
أَحْمَدُ (٤ / ١٨١)، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» (٢ / ٣٣) مِنْ حَدِيثِ بُسْرِ بْنِ أَرْطَاةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وَالثَّانِي مِنْ قَوْلِهِ: «وَأَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا...» إِلَى «وَعَذَابِ الْآخِرَةِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٥٠٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَالنَّسَائِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكَبِيرِ» (١٠٢٣٤) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وَالثَّلَاثُ قَوْلُهُ: «يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٥٢٧) مِنْ حَدِيثِ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وَالرَّابِعُ قَوْلُهُ: «يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ (١٩٩٦) مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» (١ / ٣٠١)، مِنْ حَدِيثِ الْأَغْرَمِ الْمَزْنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفِي
سَنَدِهِ ضَعْفٌ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ (٥٩٤٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً بِلَفْظٍ:
«وَاللَّهُ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً».

وفي هذه النسبة رجوعٌ من مقامِ التفرقةِ إلى حالِ الجمعِ، ومن الفناءِ إلى البقاءِ، ومن الغيبةِ إلى الحضورِ، وقد وردَ في الدعاءِ المأثورِ: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفَةَ عينٍ ولا أقلَّ من ذلك»، وفي روايةٍ: «فإنَّكَ إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ذنبٍ وعورةٍ وخطيئةٍ؛ فإني لا أثقُ إلا برحمتك»^(١).

وحاصلُ البيتِ: إلهي لا تُؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا بذنوبنا، ولا تفضحنا يومَ القيامةِ على رؤوسِ الأشهادِ بعيوبنا، وانظر إلينا بنظرِ الرحمةِ ليحصلَ مطلوبنا؛ فإنَّكَ أرحمُ الراحمينَ، ونحنُ من جملةِ الظالمينَ، ولو عملتَ بالعدلِ فينا لَكُنَّا من الهالكينَ، ولكن فضلكَ قديمٌ، وكرمُكَ عميمٌ، وأنتَ الرؤوفُ الرحيمُ.

وَحُذِّبْنَا بِنَوَاصِيكَ وَهَبْ لَنَا يَقِينًا يَقِينًا كُلَّ شَكٍّ وَرَيْبَةٍ
الواو عاطفةٌ، والباءُ للتعديّة، و(إِلَيْكَ) حالٌ متعلّقٌ بمقدّرٍ و(هَبْ) أمرٌ من الهبةِ، و(يَقِينًا) مفعولُهُ، وجملةٌ (يَقِينًا) صفتُهُ، وهو فعلٌ مذكّرٌ غائبٌ، من وَقَى يَقِي؛ بمعنى حَفَظَ، وضميرُهُ المستترُّ راجعٌ إلى اليقينِ، وضميرُ المتكلمِ مفعولُهُ الأولُ، والثاني (كُلَّ شَكٍّ)، ثم الناصيةُ: قِصَاصُ الشِعْرِ على ما في «القاموس»^(٢)، وقد قال تعالى: ﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]؛ أي: إلا هو مالكٌ لها، قادرٌ عليها، يصرّفُها على ما يُريدُ بها، والأخذُ بالنواصي تمثيلٌ لذلك؛ ذكرُهُ البيضَاوي^(٣).

والمرادُ هنا: أخذٌ خاصٌّ يحصلُ للخواصِّ، وهو أن يوجَّهَ وجهَ عبدهِ عمّا سواه

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» (١٩٠٠)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٤٢) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص ١٧٢٥)، (مادة: ن ص و).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٣/ ٢٤١).

إليه، حتى يتوكل في جميع أموره عليه، فالمعنى: وخُذْ يا إلهي بنواصينا وملأك قلوبنا وقوالنا وأهلينا؛ متوجهين وقاصدين، ومنتهين عما سواك إليك مُعرضين عن غيرك، مُعتمدين عليك، وهب لنا من لدنك علماً يقيناً دائماً صادقاً حتى نعلم أنه لا يُصِينُنَا إلا ما كتبت لنا، ويقينا ذلك اليقين، ويحفظنا من كل شك وريبة في الدين؛ فإنك أنت المُوفق والمُعِينُ.

إِلَهِي اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ وَخُذْنَا إِلَى الْحَقِّ نَهْجاً فِي سَوَاءِ الطَّرِيقَةِ
الهداية: الدلالة الموصلة إلى المطلوب، والنَّهْجُ؛ بالفتح والسكون: الطريق الواضح؛ كالمنهج.

والمعنى: إلهي! دُلَّنَا على المطلوب، واهدنا إلى المحبوب، وثبِّتْنَا على الصراط المستقيم، مندرجين في سلك مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ بِالدينِ الْقَوِيمِ، وَخُذْنَا وَبِقُلُوبِنَا وَأَبْدَانِنَا وَوُجُوهِنَا وَتَوَجُّهِنَا عَلَى كُلِّ جِهَةٍ وَوُجْهَةٍ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ؛ مِنَ الْعَدْلِ وَالصِّدْقِ، حَالِ كَوْنِ ذَلِكَ الْحَقِّ يَكُونُ وَاضِحاً ظَاهِراً لَانْحَافٍ فِي الطَّرِيقَةِ الْجَادَّةِ الْمُسْتَوِيَةِ، غَيْرِ الزَائِغَةِ إِلَى الطُّرُقِ الْمُنْحَرِفَةِ الْمَائِلَةِ إِلَى الْكُفْرِ أَوِ الْمُبْتَدَعَةِ وَالْفَجَرَةِ.

وحاصل البيت معنى ما ورد في أم الكتاب من الدعاء الجامع لكل باب، ولذا قَالَ الْغَزَالِيُّ: هُوَ أَفْضَلُ الْأَدْعِيَةِ^(١)، كَمَا أَنَّ مَا قَبْلَهُ أَفْضَلُ الْأَثْنِيَةِ، وَلِذَا طُوْلِبَ الْعَبْدُ بِقِرَاءَتِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ؛ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى مَا يَعْجَزُ عَنْ تَفْصِيلِهِ مُجَلَّدَاتٌ.

ومُجْمَلُهُ: أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ فِي الدُّنْيَا كَالْجَسْرِ الْمُعْبَرِ فِي الْعُقْبَى فِي كَوْنِ كُلِّ مِنْهُمَا أَحَدٌ مِنَ السِّيفِ وَأَدْقُ مِنَ الشَّعْرِ فِي نَظَرِ أُولِي النَّهْيِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]،

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ٦٤).

وهو طريقُ الإسلام، والأخذُ بالكتابِ وسنَّةِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، كما أشار إليه في حديث: «ستفترقُ أُمَّتِي على سبعينَ فرقةٍ كلُّهم في النارِ إلا واحدةً، وهي ما أنا عليه وأصحابي»^(١).

وَكُنْ شُغْلَنَا عَنْ كُلِّ شُغْلٍ وَهَمِّنَا وَبُغَيْتَنَا عَنْ كُلِّ هَمٍّ وَبُغْيَةٍ
الهِمُّ هنا: بمعنى القصد والإرادة، والبُغْيَةُ؛ بالضم والكسر: الطلب والمطلوب.
وفي البيت لفٌّ ونشرٌ مُرتَبِنٌ من صنيعِ البديع.

يعني: وكُنْ إلهي بذكرك وشكرك وتوفيقِ أمرك شُغْلَنَا بدلاً عن كُلِّ شُغْلٍ؛ مَنْ كُلِّ قولٍ وفعلٍ يُشغِلنا عن معرفة ذاتك وصفاتك، وعن العملِ بطاعاتك وعباداتك، وكُنْ قِصْدَنَا وإرادتنا وَبُغْيَتَنَا وَطَلْبَتَنَا بدلاً عن كُلِّ قِصْدٍ وإرادةٍ وَبُغْيَةٍ وَطَلْبَةٍ تكونُ مُتَضَمِّنَةً لغرضٍ من الأغراضِ الفاسدة، أو مُشْتَمِلَةً على الأعراضِ الكاسدة.

وَصَلِّ صَلَاةً لَا تَنَاهَى عَلَى الَّذِي جَعَلْتَ بِهِ مِسْكَاً خِتَامَ النُّبُوَّةِ
(صَلَاةً) تنوِينُهَا للتعظيم، وهي منصوبةٌ على المصدرية أو على المفعولية؛
على تجريد (صلِّ) بمعنى (بلغ)، و(تَنَاهَى) حُذِفَ مِنْهُ إِحْدَى التَّاءَيْنِ، و(عَلَى) متعلِّقٌ
بـ (صَلِّ)، أو بالصلاة، والموصولُ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، و(جَعَلْتَ) بمعنى
(صَيَّرْتَ)، والمنصوبان مفعولان.

يعني: اللَّهُمَّ بَلِّغْ صَلَاةً عَظِيمَةً حَاوِيَةً تَسْلِيمَةً وَسِيمَةً، من كثرتها لا تَنَاهَى عَلَى
النَّبِيِّ الَّذِي جَعَلْتَ بِسَبَبِ ظَهْوَرِهِ وَوُجُودِ نَوْرِهِ خِتَامَ نُبُوَّتِهِ مُشَابِهَةً بِالْمِسْكِ وَفَوْحَتِهِ؛
حَيْثُ وَصَلَتْ صِيَّتُهُ شَرْقاً وَغَرْباً، وَعُجْماً وَعَرْباً، وَإِنْساً وَجِنّاً، وَمُلْكاً وَفَلَكَاً.

وَأَلِّ وَصَحْبٍ أَجْمَعِينَ وَتَابِعِ وَتَابِعِهِمْ مِنْ كُلِّ إِنْسٍ وَجِنَّةٍ

(١) رواه الترمذي (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وفي سنده الإفریقی، وهو ضعيف، لكن له شواهد بمعناه تقويه.

جُرَّ (آلٍ) بالعطفِ على الموصولِ إشارةً إلى أنهم ومن بعدهم تابعون في انسحابِ الصَّلَاةِ عليهم، والمرادُ بالآلِ: أهلُ بيتِ النبوةِ من عشيرته الأقربين، وبالصحابي: كلُّ مَنْ لقيه مؤمناً به وماتَ على الإيمانِ، والتابعي: مَنْ رأى الصحابيَّ بشرطِ الإيمانِ.

وفي تأكيدِ (أجمعين) لشمولِ جميعِ أفرادِ الآلِ والأصحابِ على وجهِ الاستيعابِ إشارةً إلى بطلانِ مذهبِ الخوارجِ والرافضة؛ حيثُ تركَ الأولونَ محبةَ بعضِ أهلِ بيتِ النبوةِ، والآخرونَ محبةَ بعضِ الصحابةِ، وإنَّ الصوابَ حُبُّ الجميعِ كما عليه أهلُ السنةِ والجماعةِ.

والمرادُ بالتابعِ الجنسُ، ولذا صحَّ إتيانُ ضميرِ الجمعِ في قوله: (وتابعيهم)، وأريدَ بأتباعِ التابعين: جميعُ المؤمنينَ إلى يومِ الدينِ من كلِّ إنسٍ وجنٍّ، المُعَبَّرُ عنهما بالثقلينِ، وتخصيصُهما لكونهما من المُكَلَّفَيْنِ بالمُتَابَعَةِ في أمورِ الدينِ، رضي الله عنهم أجمعين.

ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا، رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، فَأَمَتْنَا عَلَى الصُّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِبَرَكَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَبِجَاهِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى خُلَاصَةِ الْمَوْجُودَاتِ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قَالَ مؤلفه: فرغَ بمكةَ المكرمةِ قُبالةَ الكعبةِ المُعَظَّمةِ في شهرِ ذِي الْقَعْدَةِ، عَامَ سِتٍّ بَعْدَ الْأَلْفِ مِنَ الْهَجْرَةِ، عَلَى صَاحِبِهَا أُلُوفُ التَّحِيَّةِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ^(١).

(١) جاء في آخر النسخة الخطية المرموز لها بـ «ح»: «قابلت هذه النسخة وصححت في غرة ربيع الآخر، سنة اثنتان وعشرين ومئة بعد الألف، وأنا الفقير عبد الوهاب الشهير بذاكر زاده».